

الجالحظا

ومجتمع عصره
في بغداد



بقلم
جميل جبر

دكتور في الآداب

دار صادر
بيروت

الجاحظ

ومجتمع عصره
في بغداد

بقلم
جميل جبر
دكتور في الآداب

دار طائر
بيروت

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

توصلة

لعل الميزة الرئيسية التي تفرّد بها الجاحظ هي اتخاذ المجتمع مادة لقلمه ، وقد شقّ بذلك تياراً جديداً أتبعه الكتاب من بعده ، كان أولهم حيتان⁽¹⁾ .

أجل لم يوجّه الجاحظ كل نتاجه الضخم نحو الدراسة الاجتماعية ، شأن ابن خلدون أو غيره من المحدثين ، بل تناول بيئة عصره بالنقد والوصف والتحليل في أكثر ما كتب . فما عدا المؤلفات التي تناولت النقد الصرف أو الدراسة «كالبحلاء» و«ذم الكتاب» و«رسالة الفيان» و«رسالة المعلمين» وما إليها ، قلّما خلا له أثر من علاقة وثيقة بتجمعه في كل وجه وكل مضمار . كان ينتقل ، هارثاً قارة وحاداً قارة أخرى ، بين مختلف مواضيع ، من الثقافة ، إلى الأديان : إلى الأحزاب والشييع والطبقات . وكان لظروف حياته الخاصة التي أتاحت له أن يعايش كل فئة من فئات الشعب والحكام ، أن جعلت من نتاجه أفضل وأصدق مرآة لعصره .

على رغم هذه الفريدة في الاتجاه الأدبي لم يُدرس بعد الجاحظ ، على هذا الوجه ، دراسة مفصلة وافية . لقد عني دارسوه خصوصاً بطريقته الأدبية وأسلوبه العلمي وآرائه الدينية ونهجه الساخر وتوجيهه الفلسفي ، وأغضوا عن درسه المجتمع ، على أهميته الأكيدة .

(1) هو مؤلف كتاب «الإمتاع والمؤانسة» المشهور .

ففي عصر الالتزام الأدبي الذي نعيش فيه ، وقد شاء الأديب الحق أن يكون شاهداً على عصره ليأتي نتاجه من لحم ودم ، يجدر بنا أن نعود إلى الملاحظ ، أول أديب عربي أذى شهادة جامعة عن مجتمع عصره ففتح الطريق أمام الأدب الملتزم المعاصر .

تلك هي أهم الأسباب التي حدثنا على معالجة هذا الموضوع بالذات رغم وهرة المسلك وتعدد التحقيق .

جميل جبر

الجاحظ في حياته وبينته

في البصرة

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي . لقب بالجاحظ لبحرٍ عينيهِ ، أي نتونها . وكان هذا اللقب لا يُعجبه ، على ما يظهر ، فيتبرم عن يدعوه به ، ويجهد نفسه لكي يُقرّر في أذهان الناس أن اسمه «عمرو» ، وأنه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم ، وأن اسم «عمرو» أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجاً .

كان قصير القامة ، دميم الوجه ، يُضرب المثل ببشاعته⁽¹⁾ . ولكنه كان خفيف الروح ، حسن العشرة ، ظريف النكات ، يتهافت الناس إلى الاستمتاع بنوادره . ولد أبو عثمان في البصرة حوالي سنة 776 (160هـ) ، ومات فيها سنة 869 (255هـ) . وقد اختلفت آراء المؤرخين بصدد تاريخ ولادته وموته إلا أن معظمهم اتفق على ما ذكرناه .

وتضاربت الآراء كذلك بشأن أصله ، فمنها ما يُفيد أنه كناني ليشي ، ومنها ما يؤكد أنه مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ، وأن جدّه أسود يقال له فزارة وكان جماًلاً عند ابن قلع⁽²⁾ .

نشأ بيتاً ميثالاً إلى العلم ، فكان يخالط المسجدين⁽³⁾ في البصرة تارة ، ويختلف

(1) لو مسح الخنزير مسحاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ .

(2) تاريخ ابن عساکر .

(3) طائفة من العلماء وأرباب النحو واللغة كانت تجتمع في مسجد البصرة .

إلى أحد الكتائب طوراً. وقد روى شيئاً عن ذكرياته في ذلك العهد قال⁽¹⁾ :

«رأيت كلباً مرة في الحي، ونحن في الكتاب، فعرض له صبي يُسمى مهدياً من أولاد القصابين، وهو قائم يححو لوحه، فعض وجهه، فنقع ثيبه دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خذه، فرمى به ملقياً على وجهه، وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفرع، وبقي طائر القلب، ثم خيط ذلك الموضع، ورأيت بعد ذلك بشهر، وقد عاد إلى الكتاب، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا هز، ولا دعا بماء، حتى إذا رآه صاح: ردوه، ولا بال جرواً، ولا علقاً، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير».

تدلنا هذه القصة على دقة الملاحظة التي تميز بها الجاحظ منذ حداثة، فأما ما التمرس من بعد، بقدر ما تدلنا على الطبقة الاجتماعية الفقيرة التي نشأ فيها. فهو عصامي، كان يعمل ويتعلم في آن. ويذكر بعضهم أنه كان يبيع الخبز والسمك بجوار نهر سيحان (في البصرة).

ويروى أن أمه كانت تؤثر أن ينصرف بكتبه إلى التجارة ولا يضيع عليه وقتاً ثميناً في الدراسة، فجاءته يوماً، بدل الغداء، بطبق كراريس، فقال:

«ما هذا، قالت: هذا الذي نجي، به، فخرج مغتماً، وجلس في الجامع وموسى ابن عمران جالس، فلما رآه مغتماً، قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث، فأدخله المنزل، وقرب إليه الطعام، وأعطاه خمسين ديناراً، فدخل السوق، واشترى الدقيق وغيره، وحمله الخمّالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، وقالت: من أين لك هذا: من الكراريس التي قدمتها إليّ، ثم اتصل بعد ذلك بابن الزيات فأقطعه أربع مائة جريب في الأعالي، قال الحاكم: وهي تعرف بالجاحظية إلى الآن»⁽²⁾.

(1) الحيوان، ج 2، صفحة 5.

(2) ذكر المعتزلة لابن المرتضى، صفحة 38.

في بغداد

لم تكن آفاق البصرة^(١)، على رجبها، لتكفي أبا عثمان، فانصرف عنها إلى بغداد، عاصمة العالم الإسلامي، في ذلك العهد. وكانت تجذب إليها نخبة المفكرين وأهل الفن. فهذه المدينة ما كانت يومذاك مركزاً من أهم المراكز الاقتصادية في العالم وحسب، بل كانت أيضاً وخصوصاً عاصمة العلم والأدب والجمال. وكان تساهل الخلفاء العباسيين حافزاً للكتاب، أياً كان مذهبهم وأصلهم، على الإقامة فيها فصارت على حق عين العراق يوم كانت العراق عين العالم. وقد أفاد الجاحظ من جر بغداد هذا لتوسيع ثقافته وتكثيرها.

استدعى المأمون الجاحظ على أثر كتاب وضعه عن «الإمامة» وصدره ديوان الرسائل. وما انقضت ثلاثة أيام حتى استعفى من منصبه فأعفي. وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب. وما كان ثمرة الفطري على القيود ليبقيه في الديوان أكثر مما بقي. إلا أنه بقي للخليفة مخلصاً وفياً، فأيسرت حاله بعد بؤس.

سأله أحدهم: يا أبا عثمان، كيف حالك؟ فقال الجاحظ: «سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً، حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلات إلي، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب أفخرها، وأجلس على ألين الطبري، وأتكئ على هذا الريش، ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج، فقال له الرجل: الفرج ما أنت فيه، قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى، ويختلف إلي، فهذا هو الفرج!».

ولما توفي المأمون لازم الجاحظ محمد بن عبد الملك وزير المعتصم المعروف بابن الزيات وانحرف عن القاضي أحمد بن أبي دؤاد، للعداوة بين أحمد ومحمد،

(١) في ذلك العهد كان يتلقى الفصاحة شفاهاً عن الخطباء والشعراء الذين كانوا يترددون إلى أسواق البصرة المعروف بالمربد، وكان يجالس بعض أئمة اللغة كابن وهب والأخفش. ويقال إنه كان يكثر حيوات الوراقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة.

فما قص عني من نريات هرب الحاحط فليل له لدا هربت؟ فقال حمت أن
أكون ثاني اثنين أدهما في التور⁽¹⁾.

غير أن هرب الحاحط لم يحط طويلاً من شر القاصي بن أبي دؤاد، فقد حدث
اسحق الموصلي قل⁽²⁾

«كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قل ابن الريان، فجاء الحاحط مفقداً،
وكان من أصحاب ابن الريان، وفي ناحيته، فلما نظر إليه قل والله ما علمت
إلا متسبباً لعمه، كهوراً للصيغة، معدداً للمساوي، وما فتى باستصلاح
ك، ولكن الأيام لا تصحح لك إلا لفساد طوبتك، وردة دحنتك، وسوء
اختيارك، وتعال طبعك، فقال له الحاحط: حفص عسك، أيدك الله، هو الله لأب
يكره لك الأمر عني خير من أن يكون لي عليك، ولأب أسوء وتحسن، أحسن
عسك من ن أحسن فتسيء، وب يعفو عني حار قدرتك، أحسن من الانتقام
مني، فقال له ابن أبي دؤاد قبحك الله، ما علمت إلا كثير ترويق الكلام، وقد
جعلت بياض أمام فسك، ثم اصطفت فيه سفاق والكفر، ما يؤيل هذه الآية:
﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، أب أحده أليم شديد﴾ قل

تلاوتها تأويلها، أعر الله لقاصي، فقال حنوا بحداد، فقال أعر الله القاصي،
ليفت عني أو يريدي، فقال بل ليعث عسك، فحيء بالحداد، فعمره بعض أهل
مجلس أن يعف ساق الحاحط، ويطيل أمره قليلاً، فظلمه الحاحط وقال: اعص
عسل شهر في يوم، وعص يوم في سعة، وعص ساعة في لحظة، فإن الضرر عني
سافي، وليس جدد ولا ساجه فصحت ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه، وهان
بن أبي دؤاد ل محمد بن منصور وكان حاصراً أنا أئق بصره ولا أئق بسية، ثم
قال يا علام، صر به إلى الحدم، وأعط عه لأدى، وأحمل إليه تحت ثياب،

(1) ابن نريات قد صنع، في أيام وراثة، توراً من حديد يعذب به المصادرين فلما اعتصمه
المتوكل مر يده حاله في التور

(2) معجم الأدباء بباقوت، جزء 6، صفحة 58

وصوته، وحقاً، فليس ذلك، ثم أتاه فتصدر في محسبه، ثم أقبل عليه وفا
هاب الآن حديثك يا أبا عثمان»

عند أبي ذؤاد

وقدم أبو عثمان كتابه «اللب والتبيين» للقاضي ابن أبي ذؤاد فأعطاه هذا
حمسه آلاف دينار وأقام يوماً على عهده. فلما مرص وحلقه في انقصه ابنه
أبو الوليد، التحق به، الخاط حتى صرف من الخدمة، ثم أرم لصح بن حلق
وصدوه على ود.

وذكر الخاط من بعد لستوكل، لتأديت بعض ولده فلما رآه لحيفه، استشع
مطره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه، فما ان خرج من عنده حتى لقي محمد
بن إبراهيم، حاكم فارس، وهو يربط الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض عليه
الخروج معه والاحذار في حراقتة⁽¹⁾ بسر من رأى⁽²⁾ - فركبا في الحراقة حتى
انتهيا إلى قم القاصول⁽³⁾ فصب هناك متارة وأمر العاء معهم الخاط، ما شاء
التعم، بالعم الشحي، وكد يابى الحياة أن تمر عني غير رهو ورفاه

وهذا المين إلى العيش لرحي دفع الخاط إلى النقل باستمرار، وبدا هو دائماً
عني سفر، وبدا هو لا يكفي بالعراق مقرأ، فتركه إلى مصر وإلى دمشق وإلى
إطاكية، وإلى غير بندا يسرح بصره وبصيرته حيثما يحل ويدون استطاعته
بأسلوب فكه رشيق وقد ذكر في سفره إلى إطاكية البادرة التالية.

«إني رأيت الثلث الأعلى من مدرة مسحد. إطاكية أظهر حدة من الثلثين
السفلين، فقلت لهم، ما بال هذا الثلث الأعلى أحد وأطرى؟ فابوا لأن تسم
ترفع من بحر هدا، فكان لا يمر بشيء، إلا أهيكه، فمر على مدينة هي انهر،

(1) مركب صغير

(2) تعرف اليوم بسمرة

(3) اسم نهر

مجادياً برأس هذه البقرة، وكتب على مفاهي عليه، فصر به ندسه صرقة خدعت من
جميع أكثر من هذا المقدار، فأعدوه بعد ذلك، ولذلك تختلف في المنظر»

الشيخوخة

غير أن امرئ الذي سم لم يحاط في شبابه، على شيء من لعبوس، ما عثم
أن ماواه دوما رحمة في مرحلة العمر الأخيرة لقد أصيب أبو عثمان بالفالج
فمازّل لبس، إلا قنهم، وبرم بحظه، وفي تلك السنين العصبية كان القسم
رفيقه لدائم يستعيبه على مصابه وعلى حدود حالته وكتب عهد ذلك في كتاب
«الحيوان» مبرراً اضطراب بعض فصوله قل

وقد صادف هذا الكذب مي حالات تمنع من بوع الإرادة فيه، أولى ذلك
العدة شديدة، والثانية قبه الأعواء، والثالثة طول لكتاب»

إبان مرضه هذا مضى أو معاد الخولي منتصب وصحبه يعودونه في مرله.
فلما أحذوا محسبه أتى رسول المتوكل، فعلى له الخاط: «وما يصنع أمير المؤمنين
شئ منل، ولعاب سائر سم أنبل على أبي معاد ورفقائه وقل لهم، «ما تقولون
في رجله شقار، أحدهم لو عرر بالمال ما أحسن، والشق الآخر يجره، الدباب
فيغوث، وأكثر ما أشكوه لثمايون»⁽¹⁾.

وقضى في فراشه لبس الطوائ وهو يعالج الداء متأسفاً فضطرب آخر الأمر
بلا منقطع حتى عن القسم والكتاب، ووراه المبرز، وهو على ذلك البؤس،
فسأله كيف حاله، فقلى «كيف يكون من بصفه مضوح وحرّ بالمشير لما
شعر به، وبصفه الآخر منقرس لو طار الدباب بقربه لآمه، وأشد من ذلك ست
وتسعون سنة أنا فيها»⁽²⁾ ثم أشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

(1) أمالي القاضي، الجزء الأول، صفحة 5

(2) معجم الأديب لياقوت، الجزء 6، صفحة 79

لقد كذبتك بمسك ليس ثوب دريس كالحديد من الثياب
 وكان يطوي نصفه الأيمن بالصدل والكافور لشدة حرارته ، يسم كان النصف
 الأيسر شديد البرد لقد اصطلحت الأصداد على حسده ، عني غير رحمة ،
 فكان إن أكل بارداً أحد برحه ، وإن أكل حاراً أحد برأسه ، وما زال به الداء
 عيماً لا يهاود حتى قصى عليه العظماء

* * *

بين مدّ مرهق وحرر مشرق ، تَمَرَّت حياة الحاحط بطابع خاص كان دأبه أن
 يوطد مقدمه في عاصمة لإسلام ، بغداد ، بفصل مواهبه وبفصل لاسفلال الذي
 يوفره المال أو العصمة سي يؤمها عطف الحاكمين سعداً كان أقصى منه أن
 يحوط إقامته في حاصرة الرشيد بالأمس والرفاء الصروريين له ليدافع عن مسدته
 المطلقية ويشره وينسى له العيش الرعد لدي أراد
 أحل كلمته كثيراً حماية البلاط وما تقتضيه من محادة وتمس ، لكنها أبلته مؤث
 حمة حسبها أنها أتاحته الحرية الكافية يعين ما يفكر به ، بل حسبها أنها
 ومنعت أمامه آفاق الاحتمار والملاحظة ، فسعدته عني أن يكون أصدق وأدق
 شاهد لعصره .

آثار الجاحظ

قلما كتب أديب مقدار ما كتبه الجاحظ فهو مبدع بدأً إلى آخره ولا بحثاً إلا بحال فيه ولقد كان له من الثقافة الموسوعية ما جعله يكتب في كل فروع العلم والأدب والسياسة والدين والفلسفة واللاهوت المعروفة في زمانه، حتى رغم ابن خوري أن كتبه بلغت 360 كتاباً⁽¹⁾ سأل فيها مواضيع شتى عن غير واحد في الجوهر أو تيسيس في المطلق. فهي كتاب «الحيوان» مثلاً، وهو مدنيّ بحث عملي بحث، تحد معظم آراء الجاحظ في مذاهب المعتزلة، كما تحد طائفة من نقدته لاحتماجة فيه هو يعالج أمراً عمياً خطيراً تراه ينتهز فوراً إلى نادره مصحكة، أو إلى ملاحظه لا شأن بها لبنة بأسو صوغ الأصيل وأحاله كان يلحاً إلى هذه الطريقة لعريه رعة منه بتبديد من عن القراء وتشويقهم إلى متابعة فصوله. وقد قال دفاعاً عن نظريته هذه:

«إن كنت قد أمسك بالحد، وباحتجاب بصحيفة والمروحة، لتكثر الخواطر، وشهد العقول، فإن سسشطك بعصر البطولات، وبذكر العلل والطريقة. لك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء، تبين حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في صحتك مه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الحجة»

أما أهم الآثار التي تركها صاحباً من كتب ورسائل وأبحاث فهي:

١ - كتاب الحوار⁽²⁾ (سعة أحرار)، وهو بحث صحم يتناول فيه المؤلف،

(1) يقول المسعودي فيها 135 ويؤكد ياقوت فيها تجاوزت 180

(2) صدرت منه طبعة حديثة في القاهرة دفعها عبد السلام هارون

وهو يصف صنائع الحيوانات، شؤناً لا علاقة لها أبداً بعنوان الكتاب إنه موسوعة متنوعة صممت بحوثاً هي «التعاليم الدينية» من ليهودية إلى مبنوية، إلى الررادشية، إلى النصرانية، إلى الإسلامية، إلى الإلحادية من دهرية ووثنية، مما هي هذه الديانات والوثنيات من شيع وبرعات ومذاهب، كما تصمت حواطر شخصية على هامش الخية أو نوادر وفكاهات أما العاية الأولى من وضع هذا الكتاب فلعلها على الصعيد الديني تمجيد للحال من خلال عجائب الكون وامنداح للإسلام في قوة شرعه، بقدر ما هي، على الصعيد العلمي، نظرة شاملة في علم الحيوان وعروعه

أما المراجع لتي استند إليها الحاحط فمن أهمها مباحث أرسطو وديموقريطوس وجالوس وأبي عبد الله في الحقن العلمي، ويصهر كتاب «الحيوان» هو آخر ما صنف يدلل أنه يذكر فيه سائر كتبه بما فيها «البحلاء».

كتاب البحلاء⁽¹⁾

درسه أربعة نقدية فكهة جمع فيها أبو عثمان أحمار البحلاء والمحين في عصره من أهل الناصرة وحراسا بوع خاص وصور ما عاين حية باطفة من أولئك الذين استهواهم الدرهم حتى العماية، فصاروا أصحواكه الناس ومدار تدرهم.

أما عتيه من هذا الكتاب الطريف، اندي لم يفقد طراونه على الزمان، فهي على ما يبدو سرد نوادر البحلاء واحتجاج الأشقاء، وتفسير قصدهم من تسمية لبجل إصلاح والشخ اقتصاد، وبيان رواياهم من جعل لحد سره ولاثره جهلاً فكأنسي بالمؤلف شاء أن يظهر، بشكل بهكمي بارع، حفارة البحلاء، ليعظم سحاء العرب عن طريق مقارنة القيصيين.

(1) ترجمه بن الفرمسه شارل بلا و صدر به مؤخر صبعان متفحان في العربية (احده في مصر دفعها طه الخاجري) والثانية في بيروت (دفعها كرم البستاني)

من خلال صوز البحلاء والأشقاء يسمى الخاطف في هذا الكتاب، أكثر منه في أي كتاب آخر، أصواء كشافة على بيئة عصره في شتى مواضعها. فكتاب «البحلاء»، من هذا القبيل، مرجع وثيق لدراسة المجتمع العباسي إبان ازدهار بغداد والبصرة وحراسد وخصوصاً من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل ولا تقل قيمة الكتاب الأدبية عن قيمته التاريخية، فهو على وجه الإجمال¹ من أرشق آثار الخاطف أسلوباً وأكثرها متعة.

البيان والتبيين

هو من أهم كتب الخاطف، قال فيه ابن خلدون: «وسمعت من شيوخنا في محاليس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين. وهي أدب الكاتب لاس قسية، وكتاب الكمس مبرد، وكتاب البيان والتبيين للخطف، وكتاب النوادر لأبي عبي القاي وما سوى هذه الأربعة تنبع لها، وفروع عنها»² في هذا الكتاب يحلظ الخاطف، كعادته، بين علوم البلاغة والأدب واللغة والباريح والمطلق وهو على كل حال مرجع ديبى وثيق وكنت العابة من وضعه الرد على الشعوية بتبيان تعوق العرب في البلاغة.

رسالة التربع والتدوير

هي رسالة وضعها الخاطف في هجاء أحمد بن عبد الوهاب وأخرج فيها من سمته بقدر كبير وما قانه في قدح بن عبد الوهاب أنه يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحمد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الالتحال لاسم الأدب.

في هذه الرسالة المفريده التي يتصدر بها أبو عثمان على مهجوه يطرح عليه قصد تعجيره ومعانيته منه مسألة تدول معظم المعصلات العلمية التي شعت

(1) فيه من هذا بعض لأبيهم وبعض الكلام العريب

(2) المقدمة، صفحة 805

شتمع عصره من تاريخ ، إلى فلسفة ، إلى كيمياء ، إلى لاهوت ، إلى حيوان ، إلى نبات . .

والمعصلات التي يذكرها الخاحط في أسئلته المخرجة لا يحلها طبعاً في رسالة الربيع والتدوير القصيرة بل يحيل مآطره في كل مسألة إلى كذب معين من كتبه . إنها تظهر مدى معارف الخاحط الموسوعية ، بقدر ما تظهر لدعته التهكمية الجارحة .

سائر الرسائل

كتب أبو عثمان رسائل كثيرة ، إضافة إلى هذه الكتب ، في مواضيع شتى : منها في الفلسفة والدين ، كرسائله في فضيلة المعتزلة أو الردة على الصاري ، ومنها في السياسة ، كرسائله في مناقب الترك ، أو فخر السودان على البصير ، أو العثمانية ، أو رسالة بي بي أمية ، ومنها اجتماعية كالغيان والعشق والنساء ، ومنها أخلاقية ، كالحاسد والمحسود ، ودم الكتاب ومنها علمية أو اقتصادية كرسائله في الحراح ورسائله في الكيمياء الخ . . .

وهناك رسائل كثيرة نسبت إلى الخاحط ، لكن نسبتها تثير بعض الشك ، ككتاب الساح مثلاً . وكان من الشائع في ذلك الزمان أن يسب كتاب ما إلى أديب معروف قصد ترويجه ، وقد لاحظ الخاحط نفسه إلى هذه الطريقة في أول عهده الكتابي .

أخلاق الجاحظ ونواياه

قل أبو عثمان ما حجبني أحد لا امرأتان، رأيت إحداهما في العسكر،
وكانت صويبة البغامة، وكسب على طعام، فاردت أن أمارحها.

ففت لها: انري كلي معنا.

فقلت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا^{١١}

وأنت الأخرى فإني أنسي وأل على باب داري فقال لي إليك حاجة وأريد
أن تمشي معي. ففهمت معنا إن أأ أنت بي إلى صائع يهودي وقلت له: مل
هدا^{١٢} وانصرفت. فسألت الصائع عن قولها فقال: إنها أتت إلي بعصر وأمرني
أن أنقش لها عليه صورة شيطان ففعلت لها «ما ستي ما رأيت الشيطان»^{١٣}
فأنت بك وقالت ما سمعت^{١٤}

ش دلت هذه المادرة على شيء وإنما تدل على ميل فطري إلى التهمك
والسخرية، فاحاحه أحب التهمك للتهمك حتى ولو على نفسه. كان المرح من
صميم طبعه، والتكئة على أسنة لسانه.

قد يكون مصدر هذه التكئة المأمة، كما يبدو، عقدة نفسية ولدتها الغمة
على قدر هزئ بصاحبها فحعبه دميماً هزياً، وصيغ السب، بقدر ما عررت هاتوة
على مجتمع ما قدّر لعنم قدره، فرفع دوي العرور وأعصى عن حملة الثقافة، وما
كان المرح، لا مطهر كبرياء لدى أبي عثمان، وقد أبى أن يروح تحت عقده بقصه
موكداً قول المثل: كل ذي عاهة جبار.

إلا أن الحاح، إن حرمة الطسعة شكلاً لانقاً، فقد حته عفلاً ميراً وحسناً

مرهفًا، فكأن سريع الافتناس حدّ السهل، دقيق الملاحظة، يشبه لأهل شيء
فيصوره تصويراً بارزاً وكان إلى ذلك دواءً فما عزم على أمر لا آتاه
أما العوامل التي صرفته إلى الكتابة فكثيرة ومتنوعة : منها، طبعاً، سرعة غزيرية
في مظاهر العقل، ومنها ثمرد على أوصاف اجتماعية رآها مخجلة، ومنها ثورة
على جهل مفهم سبط الحرفه والسحافة على المنطق والحقيقة، ومنها بروع حاصح
إلى اربح «مادي» ليتوفر له العيش المرفه وبسط الحاد وانقدح باعبر عن أيسر
سبيل.

ما هو المحتم الذي وصفه الجاحظ

عاش الجاحظ ، كما رأينا ، في النصف الأخير من القرن انهجري الثاني ، وفي النصف الأول من القرن الثالث ، أي في ذروة الخلافة العباسية وقد امتد سلطان أصحابها حتى إلى بلاد الهند ، فجعلوا من بغداد ، القرية الصغيرة الخاملة على ضفاف دجلة ، عاصمته ثم هو بقصور شامخة قامب على أنقاض صروح كسرى

نفوذ الأعاجم

عمّ البرق في مدينة الرشيد تبيحة لبجوحة لاقتصادية ، وأتبع الخفاء الطريقة الفرسية في عيش والحكم والهندسة ، فبدأ مؤاندهم نعتاً على أنحر ما كانت نعت عنه مؤاندهم سيادة رسر ، وإذا محاسنهم ثقرش ونرتين على طرر محاسنهم ، وإذا دواؤهم عصن باورراء ، والمستشارين والكذب والخجاف على أحسن ما عرفه كسرى أموشروان

إن خدر من ردة فعل للأمريين وأنصارهم دفع بني العباس إلى الاعتماد على انفرس أولاً ، ثم على الأتراك في شؤوهم الخطيرة ، فكان البرامكة أهم ورر انهم ، وكان الحراسايون والترك بواة حيسهم ، فقويت شوكة الأعاجم وتعبت الشعوبية هي كل حقن

الحرية الفكرية

كان لهد الاحتلاط المستمر بين الشعوب أثره الخامس في خلق جو من الحرية الفكرية رحب ، فعدن كان هارون الرشيد ، على سعة صدره ، قد حرّم الخدال

في أمور لدين، وهدد بمعاقبة أهل علم الكلام. ح، المأمون فأطلق القول⁽¹⁾ وقررت رحل العلم والأدب والعلم كان هو نفسه يحاح المقهى في مجلسه ويسلم بأرائهم إذا افتتح بها وقد أشار أبو عثمان إلى هذه النعمة لإسابة عندما قال يستحث قرائح الكتاب من معاصريه⁽²⁾.

«أوسعي أن يكون سبباً لمن بعده كسبيل من كان قبله فيما، على أن قد وحدث من العبرة أكثر من وحدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر من وحدنا، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده؟ وما يمنع الناصر لبحر من القيام عما يدرمه؟ وقد أمكر لقل، وصبح الدهر، وحوى بحم التفة، وهت ربح العماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم».

الثقافة

مد عهد المنصور بدئ قل بعض الآثار الفكرية نبوانية إلى العربية وبعث حركة الترجمة أوحها في عصر المأمون وقد أشأ هذه الخيفة، صديق الفكر والمفكرين، بست الحكمة في بغداد، وجعل له مكانه ومرصد⁽³⁾. إلا أن قل بعض وجوه التراث اليوناني إلى لعنة لم يجر، لا راساً، ولا بدقة، بل عن طريق لسيانية⁽³⁾ ويتصرف ومن هذا كان تشويش في المعنى، بل الشافعي حدث بين الأصل والمنقول⁽⁴⁾.

وقد أثرت الفلسفة نبوانية رعة الدس في استقصاء الخيفة والاسفدة في العلوم، فوضعت الكتب في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب، وأحدثت تنقّص الخرافات والأساطير الكثيرة الشائعة والمسيطرة على لأدهان.

(1) لا أن إصلاحه القول لم يبعه من وضع «نسخة»، وهي قطع غتاب عربيه الإسلام وكان المأمون يحرصه على مخالفي رأيه في لأعمال

(2) كتاب الخيون، صبعة 43

(3) كان أشهر ملتر حمير من كل بحيشوع وآل حمير وآل بويحت

(4) أهم لمدارس التي يقب إلى السريانية كدت في حديد بود والره وحران

لم تقتصر الرحمة على لراث انبوي وحده، بل شملت الثقافات الهندية
والفارسية والرومانية وسائر الثقافات المعروفة في ذلك العهد، فانسح أمام
الكاتب العربي محال رحب لتشفق قل الساح، وكان من قل يصرف حل اهتمامه
إلى النحو والبعة والبيان والإرشاد

كان من لطيفي أن يؤثر الفلسفة ليوانية، القائمة على لمطق والتحليل، في
توجيه لعهداء نحو إعادة النظر في الشؤون الدينية على ضوء العقل السلم

المعتزلة

من ثمار تحكم العقل في قصاي الدين كانت المعتزلة^١، وهي طائفة تقول بقدام
الله، وتسمي الصعقات القديمة أصلاً، ويحدد الله بأنه علم بداته، قادر بذاته، حي
بداته لا يعلم وقدره وحياة^٢، واتفق أصحابها على أن كلام الله يحدث محروق
في محل، وهو حرف وصوت وعلى أن الإنسان قادر، حائق لأفعاله ومسؤول
عنها

والمعتزلة طبقات ولكل منها، في نظر الخاطئ، شأن خطير وقد قل عنهم.
«لولا مك، متكلمير لهكت العوام من جميع الأمم، ولولا مك، المعتزلة لهكت
العوام من جميع المل»

غير أن أبا عثمان أن اتفق مع سائر طبقات المعتزلة، في شؤون كثيرة، فقد
امرد بعدد أمور. منها قوله أن المعارف كلها ضرورة طماع وليس لبعاد كسب
سوى لإرادته ومنها إنكاره كواب الإرادة حسباً من الأعراض^٣.

وقد اشترت المعتزلة تشار كاسحاً أيام خلافة المأمون حتى غدت اذهب
لرسمي واستمرت كذلك إلى أن جاء لتوكل فصر بها صربة عسة

(١) ظهرت في أواس القرن الثاني الهجري حول حقه الحسن البصري على يد ر صل بن عطية

(٢) المل والمل لسهر ساي، صفحة ٩٩

(٣) المل والمل، صفحة 94

كان لأهل الكتب، ولا سيما النصارى، حرمة خاصة عند المسلمين. وأحسب أن هذا مرده لمثل الذي قام للمسيحيين قبل الإسلام، ولحسن الحوار فيما بينهم. وفي هذا قال أبو عثمان: «لما جاء الإسلام ومثلك لعرب رجال عسائي ولحمي وهما نصرايان، وقد كانت العرب تدب لهما وتؤدي لإثارة إليهما⁽¹⁾. وكان النصارى لعدو ديارهم من معش النبي ﷺ ومهاجره، لا يتكلمون طعماً، ولا يثيرون كيداً، ولا يجمعون على حرب، فكان هذا أول أسباب ما علقت القلوب على اليهود وليتها على النصارى⁽²⁾»

وبعض هذه الحرمة تمكّن النصارى من تولي المناصب الخطيرة في لدولة العباسية في عهد المأمون لكر نفوذهم مع من الاتساع حدّاً صبح معه يتهدد الإسلام، فكانت من الموكل تنافسة عيفة هيا المحط لها الطريق برسائله الشهيرة «الرد على النصارى»

وفي حو التساهل لديني داك استعاضت الرندة⁽³⁾ وتعددت الفرق إلا أن الرندة ما نحو من العقاب فشرّد بعضهم، وقُتل بعضهم، وناب الآحروب وقد اتهم الحاحط أهل الكتاب بإثارة هذه الرندة في صفوف المسلمين

البيئة الاجتماعية

أم البيئة الاجتماعية في ذلك لعصر فكان أرب ما يميز احتلاط الشعوب وتعدد العناصر وقد أذى الاستقرار السياسي إلى الازدهار الاقتصادي الذي ونّد بدوره حب لسح واجشع، فشاع اللهو، على أنواعه، من معاقرة الحصور

(1) على هامش الكامل سميد، ج 2، صفحة 162

(2) على هامش نكاسل ج 2، صفحة 70

(3) كانت كلمة رنديق على في البدء بمعنى كل من اعتق المذاهب الفرعية، ثم أصبحت على من مفكر حر حطر على سلامة الإسلام

إلى الرقص ولعناء، إلى اللعب ولهو، إلى التعم بالصور والجمال، إلى محالطة
الجواري الحسناء ونشأ عن كل هذا فتور في ممارسة موجبات الدين وإحلال
في الأخلاق واستهتار في الشؤون العامة، إنها النتيجة الحتمية للسرف في الأمم وقد
وصفت إليها كل الدول في دروة مجدها.

ومهما يكن من أمر فقد كان العهد العباسي، ولا سيما عصر المأمون، العهد
الذهبي الأكبر لحضارة عربية لقد صهرت حقاً هذه الحضارة في بوتقتها
حُلَاصة الحضارات بحريقة ووسمتها بطابع مميز

المجتمع العباسي كما رآه الحافظ

نظر الحافظ إلى المجتمع نظرة ثائر عني وضعه الإنساني، ومعتزلي مُعصم «بأصول» مذهبه، ومدافع حارم عن أسباده الخلفاء، وأديب توحى التوجيه والقد بقدر ما توحى الوصف المجرد والترويح عن النفس.

ما قصد فقط أن يصلح مجتمع عصره ذهاباً من المؤسسات والقوانين، ولا أن يدرس الظواهر الاجتماعية ليستخرج منها مذهباً اجتماعياً معيناً، بل كقائه شديد الدراسة سليم الدوق، كان حل همة أن يسرح بظاره الفاحصة في كل وسط وكن مضمار.

لقد شاء أن يلتقي حاجة فنية في نفسه، فوصف معاصريه كما راهاهم أو كما توصحوا له، بقدر ما شاء أن بهراً بعبوبهم رعة مد في إثارة الصحتك راح أن يرشد الناس، بشيء من الخش، إلى ما يؤدي إليه انحرافهم من الاحتقار، وأن يروي حقه المكبوت، ذلك لحقد الذي يكتنه ابن الشعب الكادح لمستثمره، وأن يحدم فكرة دبية أو سياسية عريضة عليه قد تحر عليه معماً وحاماً، إلا أن كان هذا لا يعني أن تكون له نظرات سديدة نثرها في مجموعة آثاره حول إصلاح المجتمع وعلم الاجتماع بوجه عام.

إن نظرنا، من هذه الزاوية، إلى نقد الحافظ الاجتماعي، بدت لنا وحوه مميزة عدة، لكنها تكامل تكاملاً يجعل تفسيرها مصطباً، ومع هذا، سنحاول أن ندرس هذه الوحوه في حقول ثلاثة مفردة:

- 1- الحقل الأخلاقي.
- 2- الحقل الديني السياسي.
- 3- الحقل الاجتماعي المجرد.

الحقل الأخلاقي

هي عمرة السحوحة المالية التي عم بها العراق في العصر العباسي انتشر انهو واشتدّت الرعبة الى كسب المال ، الوصيلة التي تؤمن لهذا اللهو أسبابه ، ونقسم الناس فئتين فئة المخطوطين ، وهم أهل انبلاط والحاشية والأمرء والورراء والأتباع ، وكانوا في يد ح مقيم لطلما تحاور المعقول⁽¹⁾ ، وفئة اخرومين الذين رعو في يؤسهم يشوب من حور مستثمريهم ولا يحرقون حتى عني التدمير .

المستثمرون

في مجتمع لندرمهم شأنه في ورر انقيم ، كان من لطيعي أب يودي اليهاقت عني المان إلى أقبح لوسائل . من مخانة ، إلى حياة ، إلى تزلف ، إلى كذب ، إلى عدر ، إلى وشاية أو بحمة ، وإلى كل صغاره تحط بمستوى الإنسان

في هذا الصدد ذكر الخاطب أن حكّم المناطق كانوا يعيدون من سلباتهم يحرصوا انهاد عني لرعة بانتظام ، وإن الموظفين كانوا يسيئون استعمال وطيفتهم بدفع الخشع إلى المل ، وإن الأوصياء ما كانوا ليرتدعوا عن نهب ثروة القصر ، بينما المفروض أن يحرصوا عيها من نهب الغير ، فصحّ فيهم قول المثل السائر ، «حاميها حراميها» . حتى انقصة كانوا يسحرون العدالة لأهوائهم ومطامعهم وقل الخاطب في هذا عني لسان والد يوصي ، عبد موته ، ابيه بالحرص عني ميراثه⁽²⁾

(1) كما عبد البرمكة مثلاً

(2) البحلاء ، صفحة 58-59

«إِنَّ هَذَا لِمَالٌ لَمْ أَجْمَعْهُ مِنَ الْقَصَصِ وَالْكُدِيَّةِ، وَمِنْ حَتَالِ النَّهَارِ وَمَكَابِدَةِ اللَّيْلِ، وَلَا يَجْمَعُ مِثْلَهُ أَبَدًا إِلَّا مِنْ مَعَادَةِ رُكُوبِ الْبَحْرِ

«إِنِّي قَدْ لَا بَسْتُ السَّلَاطِينَ وَالْمَسَاكِينَ، وَخَدَمْتُ الْخُلَفَاءَ وَالْمُكْدَنِيَّ، وَحَالَطْتُ السُّبُكَ وَالْمُتَّكَ، وَعَمَرْتُ السَّحُوبَ كَمَا عَمَرْتُ مَحَالِسَ الدُّكْرِ، وَحَسْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، وَصَدَدْتُ دَهْرًا كَثِيرًا لِأَعْيَابِ فَلُولَا أَيُّ دَحْتٍ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَحَرَيْتُ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، وَعَرَفْتُ لِسْرَاءَ وَالصَّرَاءَ، حَتَّى مَثَّتُ لِي التَّحَارِبَ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، وَقَرَّبْتَنِي مِنْ عَوَامِصِ التَّدْيِيرِ، لَمَّا أَمَكَّنِي جَمْعُ مَا أُحْنَفُهُ لَكَ، وَلَا حَفَظَ مَا حَسَنَتُهُ عَلَيْكَ وَلَمْ أَحْمِمْ نَفْسِي عَنِ جَمْعِهِ، كَمَا حَمَدْتَهَا عَنِ حِفْظِهِ، لِأَنَّ بَعْضَ هَذَا لِمَالٌ لَمْ أَنَّهُ بِالْحَرَمِ وَبِكَيْسٍ قَدْ حَفَظْتَهُ عَيْتُكَ مِنْ فِتْنَةِ الْبَيَاءِ، وَمِنْ فِتْنَةِ السَّيِّئِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الثَّوَابِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الرِّبَا، وَمِنْ أَيْدِي الرُّكُلَاءِ فَوَيْلٌ لِهِمْ الدَّاءُ الْعِيَاءُ

«وَسَيِّئٌ أَوْصِيكَ بِحِفْظِهِ لِمَصْلَحَتِي لَكَ، وَلَكِنْ بَعْضُ بَعْضِي لِبَعْضِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ، جَلَّ ذِكْرُهُ، لَمْ يَسُدَّ الْقِصَّةَ عَلَى أَمْوَالِ الْأَوْلَادِ إِلَّا عَقُوبَةُ الْأَوْلَادِ، لِأَنَّ أَبَاهُ إِنْ كَانَ عَيْتًا قَادِرًا أَحَبَّ أَنْ يَرِيَهُ عَدُوُّهُ وَقَدَرَتُهُ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا عَاجِزًا أَحَبَّ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْ مَدَارِهِ فَلَا هُمْ شَكَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ وَكَفَهُمْ وَوَفَّاهُمْ وَعَرَّسَهُمْ، وَلَا هُمْ صَبَرُوا عَلَى مَنْ أَوْجَبَ لَهُ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ وَاحْتَقَّ لَا يَرُصِفَ عَاحِلُهُ بِالْحُلَاوَةِ، كَمَا لَا يُوصَفُ عَاحِلُ الْبَاطِلِ بِالْمَرَارَةِ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَالْمَاضِي لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَاللَّهُ لَكَ فَإِنْ سَلَكْتَ سَبِيلِي صَارَ مَالُ عَيْتِكَ وَدِيعةُ عَيْتِكَ، وَصَارَتِ الْحَافِظَةُ عَيْنِي عَيْتُكَ. وَإِنْ خَالَفْتَ سَبِيلِي صَارَ مَالُكَ وَدِيعةُ عَيْتِكَ، وَصَارَ عَيْتُكَ الْحَافِظَةُ عَيْنِكَ وَإِنَّكَ يَوْمَ نَظْمِ أَوْ نَصْعِ مَالِكَ وَيَحْفَظُهُ عَيْتُكَ، لَخَشَعُ لَطْمَعُ مَحْدُولِ الْأَمْرِ حَتَّى الْآبَاءُ فِي حَسَنِ الْأَمْوَالِ عَيْنُ أَوْلَادِهِمْ بِالْوُفُوفِ، فَاحْتَالَتْ الْقِصَّةُ عَيْنُ أَوْلَادِهِمْ بِالِاسْتِغَاثِ مَا أَسْرَعَهُمْ إِلَى إِصْلَاقِ الْحَجَرِ، وَبَلَى إِيَّاسَ الرُّشْدِ، إِذَا أَرَادُوا الشَّرَّ مِنْهُمْ وَبَطَّأَهُمْ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ أَمْوَالُهُمْ حَائِرَةً لَصَانِعِهِمْ».

كان من الديهي أن خير هدا الخشع إلى المال في الصقة الميسورة بروءاً إليه في سائر انطباق ، ولكن على نطاق أصيق ، فمشتات طائفة «شعية» من المستثمرين مؤلفة من المتسولين واللصوص والمشعوذين تعيد من سداحة بعض الناس ولا نحجم حتى عن الاستعانة بمعدات واستحداثها لأجل تحصيل الدرهم . وقد وصف الخياط بعض عاذح منهم وبين طرق حذائهم متناً إلى ألعينهم وشرتهم فهذا المحطاري هو من يأتي في ري ناسك ويدعي أن يملك¹ قد قطع لسانه ثم يفتح فيه كما يصنع من يتشاء ، فلا ترى له لساناً لثة ولا ند لهذا المحطاري أن يكون معه واحد يعتز به ، أو روح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته وجهه الخيلة البارعة يستثير شفقة البسطاء فيسرق مالهم .

أما الكاعدي فهو من يصنع لحون وأما القرسي فهو من يعصب ساقه ودرأه عصباً شديداً ، ويبست على ذلك لينة ، فإذا تورم واحتق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين (سات أحمر) وقطر عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه حرقة أو كشف بعصه فلا يشك من رآه أن به الأكلة أو ما يشبه الأكلة ، فيرق قسه عليه ويعطيه بعض الدراهم

وأما النعواء ، فهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء . وربما طرب ، إن كان له صوت حسن . وأما الأسطيل فهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه محسب العبيس ، وإن شاء أراك أن بهما ماء ، وإن شاء أراك أنه لا يُبصر . وأما المرید فهو الذي بدور ومعه الدريهمات ويقول : هده دراهم قد جُمعت لي في ثمن قطيعة ، فريدوي فيها رحكمم الله . وري حمل صبياً على أنه نصط . وربما صب في الكفن⁽²⁾

ويستفصر الخياط في وصف حيل أولئك المكذبين ويرع في تصوير طاهرهم

(1) رعم إحدى الفرق الإسلامية

(2) البخلاء ، صفحة 65

وتحليل مقاصدهم . ولا ع و فهو من طقة لا تريد عن طفتهم من حيث انيسر
امادي والحسب والسب . وقد حذر خصوصاً من شرّ اشعراء والخطباء الدخّالين
إدقار :

«ما ظنك بالشعراء والخطباء اندي بما تعلّموا المنطق لصناعة الكسب ؟ وهو لا ،
قوم بؤدهم أن ارباب الأموال قد حازوا حذّ السلامة إلى العفة ، حتى لا يكون
للأموال حارس ، ولا دورها سبعاً في حذرهم ، ولا تنظر إلى برّة أحدهم ، فإن
المسكين أقبح منه ، ولا تنظر إلى موكله ، فإن السائل أعفّ منه ، واعلم أنه في مسك
مسكين ، وإن كان في ثياب حديد ، وروحه روح برّ ، وإن كان في حرم منك ،
وكلهم ، وإن احلقت روحه مسنتهم ، واحتجب أقدار مطانهم ، فهو مسكين .
إلا إن واحداً يطلب العنق ، وآخر يطلب الحرق ، وآخر يضرب الدّوسق ، وآخر
يطلب الألوف . فحبه هدا مي حبة هدا ، وضعمه هدا هي طعمة هدا ، وبما
يحتشرون في أقدار ما طسور ، عني قدر الخدق والسب فاحذر رقاهم ، وما
نصوا لك من الشرك ، واحرس بعصك وما دستوا بها من الدّوهي ، وعمل على
أن سحرهم يسترق لدهن ، ويحتطف النصر . قال رسول الله ﷺ : «إيا من اليباب
لسحراً»

لقد عرّ عليه حقاً ان بمتهى رملاء له في الادب رسالتهم وبهبطوا فيها إلى
مستوى الكنية والصب

البحلاء

بعد أن براعة الخدع في وصف المسؤولين ليست بشيء يذكر إذ قيست ببر عته
في وصف لبحلاء . فإن له في تصوير عيد الدرهم هؤلاء ، وفي فصيح أبايهم
شعراً خاصاً فعدا الحقد السحصي اندي بضميره انعدم عادة لسفوس لهدرة
المولعة بالكسب ، على حرمانه أحتت ثوربه على البجل والبحلاء عوامل
سياسيه حصيره فهي حمته عني الشعوبية مثلاً كان لا بدّ له أن يندح حود
العرب ويظهر بجل الموالي . هه ثمة إهانة ، في نظر العربي ، أقبح من البجل

وهو اسمى عنده من الكرم وحسن الصياغة ! أو لم يذكر عن النبي ﷺ أنه لم يضع درهماً على درهم ولا لبة على لبة، وملك حريره العرب فقبض الصدقات، وخبيت له الأموال ثم توفي وعليه دين ودرعه مرهونه وكان إلى هذا إذا سئل أعطى وإذا وعد أبجز⁽¹⁾

وفي بلد البخلاء لم يكتف الخابط بصرة عذرة، بل كرس كتاباً كاملاً من أشهر كتبه وأوفرها اسحماً، فجمع أخبارهم، وأظهر حركاتهم، وحسن تعليلاتهم، وكشف نسيانهم فكأنها أمامنا كتاب مفتوح.

وها هي بعض أمثلة على طريفته الساحرة المرححة في تصوير البخلاء والمحلين: «يقول المروزي⁽²⁾ للرائر إذا أتته، وسجلت إذا صال حبسه - بعدت اليوم³ فإن قال نعم، قل - بولا أنك تعدت بعدت بعداء طيب، وإن قال لا، قار - لو كنت تعدت لسقنت حمسة أقذاح، فلا يصير في يده عني لوجهين قليل ولا كثير».

«وكت في مرل ابن أبي كريمة، وأصنه من مرو، فإني أتوضأ من كور حرف، فقال سبحانه الله! تتوضأ بالعدب، والبئر لك معرصة؟ قلت ليس بعدب، إنما هو من ماء الشر. قل فتفسد عينا كورنا بالمسوحة فلم أدر كيف أتخلص منه»⁽³⁾

«وقال نامة⁽⁴⁾. لم أر أدبك في بلده قط لا وهو لافظ، بأحد الحية بمقاره، ثم يقطها قسّم له حاحه، إلا ديكه مرو، فإني رأيت ديكه مرو تسلب الدحاج ما في مافرها من الحب قل فعلمت أن يحلهم شيء في طبع البلاد وفي حواهر الماء، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم.

(1) البخلاء، صفحة 187

(2) نسبة إلى مرو وهي مدينة كبيرة من حرماتك (فارس)

(3) البخلاء، صفحة 23

(4) نامة بن الشرس، أحد رعماء المعتزلة

«حدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد، فهار، كت عبد شبح من أهل مرو، وصبي به صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إنا عابثاً وإنا ممتحناً أطمعني من حركم. قال لا تريد، هو مر. فقلت فاسقني من مائكم قال: لا تريد، هو مائع. قلت هات بي من كذا وكذا قال. لا تريد، هو كذا وكذا إلى أن عدت أصافاً كثيرة، كل ذلك بمعينه ويُفصه إليّ. فصحك أبوه وقال ما دسا؟ هذا من علمه ما تسمع؟ يعني ن الحل طع فيهم وفي أعرافهم وطبقتهم»⁽¹⁾

ويحلوا لنجاحط أن يوقف عبد رأيه هذا وهو أن الحل طع في بعضهم لا وليد حاجة وإلا لكان اقتصر على الفقراء ولد ساع، كما شاع في رمة، بين المؤسرين، فيقول «فأنت قد نكدت بحيلاً وممكنه أوسع وحرجه أدر وعدوه أسكر، ونكد أحرر منه حواداً. وبك كانت ممكنه أصبق وحرجه أقل وعدوه أشد حركه»⁽²⁾

ولا يقف صاحباً عند سرد بواذر الحلأ، وتعداد طرقهم ووضع تصعهم، وكشف مواطنهم، بل يريد عنهم صورة حسية، نكاد نلمس فيها حدهم، وقد ابتلي بصيوف حاول عبثاً أن يتمص منهم، يسعى محمواً لتهوين مصابه بتحفيف وحية مأكلهم إلى أقصى ما يستطيع، «فردوا وصعوا الطعام»، أقبل على أشدهم حياء، أو غنى أشدهم كلاً، وسأله عن حديث حسن أو عن خبر طويل، ولا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة بالبد أو الرأس، كل ذلك ليشعله فدهم أكلوا صدر أظهر الصور والساعن والسقر كالشعب الممتني وهو في ذلك غير رافع يده، ولا قاطع أكله. إنما هو السف بعد السف، وتعليق اليد في حل ذلك فلا بد من أن ينقبض بعضهم ويرفع يده، ويتم شمل ذلك جماعهم فدهم غنم أنه قد أحررهم راحات لهم، حتى يقنعهم من مواضعهم من حول الخوان، ويعيدهم إلى مواضعهم من مجالسهم، ابتداء الأكل، فأكل أكل الخانع

(1) البحلاء، صفحة 24

(2) البحلاء، صفحة 89.

المقرور وقال: «إنما الأكل تارات والشرب تارات»⁽¹⁾.

إنه الولد الأعمى بالدرهم يسيطر على صاحبه سيطره مستبده تجعله يستوحيه في أعماله وأفكاره وحتى في أحلامه ومن خلال بحلاء مجتمع في البصرة أو في حراسان، فقد الجاحظ إلى نفسه بحيل كل عصر ومصر ورسم عنه صورة تتحدى في طرافها الزمان.

القباب

من مظاهر اليسر المادي والاستقرار السياسي في العراق كان الانصراف إلى اللذات عن كل طريق، عشاع السري وكثرت حيلقات العناء ومحال الشراب، وازدهرت بحاره الرقيق وقد لعبت القباب دوراً حطيراً في ذلك المحيط. والقباب، هي الأصل، حوار يأتى من كل بلد حتى ملأ أسواق بغداد والبصرة، وأسهم في نشر آيدى إلى لأدب والصور الجميلة لأنها تجذب العناء وأصول البعة والشعر، ناهيك بحسبهم البار في أكثر الأحيان ويذكر الجاحظ أن الخيمة المأمون ابتع إحدى لبيان، وسمها سكر بعشرة آلاف درهم⁽²⁾. وقد وضع أبو عثمان رسالة خاصة في الحوار المعبت واصفاً وسائل الإغراء التي كُنَّ يلجأ إليها ومحدراً من عواقب الاستسلام إلى مكرهن.

«كيف نسلم القصة من لفة، أو يمكنها أن تكون عقيمة. وإنما تكسب الأهواء، وتعلم الألس والأحلاق بالنسأ وهي إنما تشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها يصدق عن ذكر الله من لهو الحديث، وصوف اللعب والأحيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة حد، ولا يرجع إلى فقه ولا دين، ولا صيانة مروية، وتروي الحادقة مهن أربعة آلاف صوت فصعداً، يكون الصوت فيما بين اليتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدحل في ذلك من

(1) البحلاء، صفحة 118

(2) ثلاث رسائل بـشكل، صفحة 61

الشعر إذ صرت بعضه بعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن عفة، ولا ترهب عن عقاب، ولا برعب في ثواب، وإنما بُيئت كلها على ذكر ربى وانقيادة، ولعشق والصورة، والشوق والعممة، ثم لا تملك من الدراسة لصاعنتها، مككة عبيها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله نجيش، وإشدهم مرودة، وهي مصطرة إن ذلك في صاعنتها، لأنها إن جففت تفلت، وإن أهملها نهست، وإن لم يستعد منها وفقت، وكل وافق فإلى نقصان أقرب، وإنما فرق ما بين أصحاب الصاعات، وبين من لا يحسبها، التريث فيها، والمواظبة عليها، فهي لو أراد الهدي ما تعرفه، ولو لعب العفة لم تقدر عليها»

لكن أما عثمان، وقد عرف المحور واستعدده، لا يثبت أن يرفع النعة عن أيديهم لأنها بحكم حوزهم الخاص، البعيد عن كل نكحة دنية أو ربة أخلاقية، مسوقات حتماً إلى مثل هذا المصير

العناء والحمر

أما العناء فيرى المحافظ فيه منعه فيه أولاً وآخراً، لا سيما عندما تكون المنقطوعة لمعانة شعري شحي الوقع، صادق البرة، فهو إذ يتناول عرساً هذا الصباح عنه ويدحض كل دريعة لحريمه ولمد يحرمونه - يقول أبو عثمان - لأنه يلهي عن الصلاة، فلماذا لا يمعور إذن لأحاديث والمشارب والمأكلة والصد والزهوة والرواج كذلك ولكنها يهني عن الصلاة

لكن المحافظ إن استطاع أن يدافع عن العناء ويحاج حصومه بشدة، فإنه كان أحفظ صوتاً بصدد الحمر والحمر، كما هو معلوم، يحرمه الإسلام، فكان يتعاطاه السيمور في الداء سرّاً ثم علناً وقد حصن المحافظ الحمر والبيد بأكثر من رسالة وصف فيها أنواع الحمر وخصائصها وبين ما هو المحرم منها، وما هو المباح، وحذر من الإفراط في السكر لأن السكر يفقد وعيه ويُقدم على أفعى المحرمات.

الحقل الديني السياسي

ما كنا نبحث به بالحقبة الدينية هو أن الشؤون الاجتماعية والدينية في الإسلام ما زالت تحت تدحرج جعل الفصل بينها مستحيلًا فالقرآن ليس للمسلمين الكتاب المقدس وحسب، أي أساس حياتهم الدينية، بل هو أيضًا لمصدر النظري لكن سلطه سياسية ومبدأ كل إدارة اجتماعية.

ونظرًا لمفهوم «التيوقراطي»^(١) مجتمع الإسلام كان لشرعية أن تدبر علاقات الشعب وأسباب حياتهم. وما كان لحفظ، لمحدد المعتزلي، إلا ليعكس في آثاره هذا الوجه الاجتماعي، فإذا الشعور الديني يحافظ الكثير من أعماله ويوحي إليه معصم آثاره.

كانت حماسة التقديس الموجهة ضد خصوم الإسلام تخدم في آن واحد مذهب الاعتزالي وأسياده العباسيين. وكان هؤلاء الخصوم قسمي: فئة الكفار، وهي تشمل الأقباط بدسة و الدهرية، وفئة الفرق الإسلامية المتأثرة.

الأقليات الدينية والدينية

أما الأقليات الدينية فكانت تتألف خصوصاً من الصابري واليهود والبرادشة والمناويين، وكانت تنصب دوراً حقيقياً في شؤون الإدارة وهي سائر الأعمال والعلوم وقد روى الخياط على لسان طبيب يدعى أسد بن حابي أسباب فشل هذا في الطبابة قال:

(١) مجتمع تُعتبر المسببة فيه منبثقا من الله

سنة سائ... سنة و... الأمر... سنة، وات عام، و... صير وخدمه،
 و... بيان، ومعرفة، فمن أين نرى في هذه الكساد؟ ول... أما واحدة في عيهم
 مسلم، وقد أعقد يقوم قل أن أنقلب، لا بل أن أحق، أن المسلمين لا يفلحون
 في لقلب... واسمي أسد، وكان يعني أن يكون اسمي صليبا وحرثين ويوحنا
 وبر... وكنتي أبو حارث، وكان يعني أن تكون أبو عيسى، وأبو ركريا⁽¹⁾
 وهذا التدمير ن دل على شيء، فيما يدل على مرلة الأقليات الدينية، ولا سيما
 البصري، في حقن الطب ذلك العهد.

أما الدهرية، وأتاعها ملحدون أصلاً، فكان وضعها غير معترف به قانوناً
 ورغم هذا كان لها نفوذ على عامة المسلمين.

ورغم في بشر الإسلام وتوطيد دعائمها، دُنب الحاحط، رضاء بعض أوبائه،
 في درس مختلف الأقليات الدينية والدينية راحصا ححيحه ومرراً أسباب
 نفوذهم العابر.

بالسنة لنحطوه الكيرة اني كانت نعم ما هذه الأقليات، ولا سيما
 البصري، كان المسلمون يحشون خطر عالمهم خصوصاً عندما أطلقت حرية
 القول في رمس للمأمون وقد بيع الخوف بالموكل حياً، سنة 835 (836 هـ)، جعله
 يريد من صرامه الفوريين بحققها كمعها مثلاً من ركوب الخيل، أو حمل السلاح،
 أو ب... المنعبد الحديدة. وتبريراً لهذا التصرف كلف الخليفة العباسي وريه الفصح
 ابن حبان أن يُثير، بواسطة الحاحط، موجة من الحقد عيها فكس أبو عثمان
 رسالته «الرد على البصري» يحمل في عني أهل لكتاب «مُشبهة المُشركين».

في هذه الرسالة الصادرة حاول الحاحط أن يدحض حجج البصري ويرهن
 على... الوحي لأبي برل حرياً على ليهود والمسيحيين فشتوهود ثم جاء بي
 الإسلام يعدله حرمة ويصونه تم يقضي في تعداد الأسباب التي جعلت لأهل
 الخبايا... عام، والبصري، بوجه خاص، لث الحرمة المبردة فيرو، في

(1) السجلا، صفحة 2.

مراكهم وملابسهم وصاعته⁽¹⁾ :

«اتخذوا البرادين الشهيرة، والخيل العتاك، واتخذوا الخوقات، وصرخوا بالصواخة وتحذقوا لمدسي، ولسوا المنجم والمطبعة، واتخذوا الشاكرية، وتسموا بالخس والحسين والعاس والفصل وعلي واكتبوا بذلك أجمع. فرعب إليهم المسموم وترك كثير منهم عقد الرمان، وعقده آخرون دود ثيابهم، رامت كثير من كرتهم من إعط، الحرية وانموا، مع اقدارهم من دفعها، وسوا من سبهم، وصرخوا من صرهم، وما لا يفعلون ذلك وأكثر منه».

أما شر هؤلاء، لذي حشيه العاسيون وعتر عه المحاط فهو أنهم كانوا «يشعرون الماقت من أحداثنا، ولصعيف بالإساد من روايتنا، والمتشابه من أي كتابا، ثم يحسبون بضعفات، ويسألون عنها عو من، مع ما قد يعمون من مسائل الملحدين والرافقة الملاءين، وحتى مع ذلك ربما نرأوا إلى علمائنا، وأهل الأقدار ما، وشعور عني القوي، ويسعون عني الصعيف، ومن البلاء أن كل ساد من المسلمين يرى أنه متكلم، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد، وبعد هؤلاء مكلمو النصارى وأطباؤهم ومخموهم ما صار إلى أعياننا وطرفنا ونحنا وحدا شيء من كتب الديه والديصابة والمقوبه والهلالية، ولم عرفوا غير كتاب الله تعالى، وسه سه سورة ولكاتب تلك الكتب مسورة عبد أهلها، غنابة في أي ورثتها، فكل سحبه عين رأبها في أحداثنا وأعياننا فمن قولهم كان أولها⁽²⁾».

التبانية

وما كان انعاسيون كذلك يظرون بعين الرصي إلى نشاط أتباع ررداشت وماي اللدين ينسبون الخلق إلى مبدئين متافصين، مبدأ الخير ومبدأ الشر، لذلك

(1) على هامش الكامل، 1702

(2) على هامش الكامل، 1742

وحب على الخاطئ أن يشهر قنمه مسداً شقراً على غير هواه « ويرغم
 رادشت، وهو مذهب المحوس، أن الفأرة من حق الله، وأن السور من حق
 الشهبان، وهو إبليس، وهو هرم، فإذا قل له: كيف تقول ذلك، والفأرة
 مفسدة، تحب فتية المصاح، فتحرق بذلك البيت، والقبائل الكثيرة، والمدن
 العظام، والأرباص لواسعة في فيها من الناس والحيوان ولأموال وتقرص دور
 العلم، وكتب الله، ودقائق الحساب والصكوك والشروط، وتقرص الثياب،
 وربما ملئت القطر لأكمل بذر، فتدع النجاش عريالاً، وتقرص الحرب، وأوكية
 الأسقية، والأرفق، وأمر بفتح حرج جمع ما فيها، وتقع في الآلة وفي السر،
 لعموت فيه، وتحوح الناس إلى مؤن عظام وربما عصت بحل الماء، وربما قلت
 الإنسان بعصها، والفأر بحرسه ربما قطعت أذن الرجل، وحردها إبطية
 لعمر عنها السابير، وقد حلا عنها قوم، وكرهها آخرون، لمكر حردها، وهي
 التي فحرت المستاة حتى كان ذلك سبب الخسر بأرض ساء، وهي المصروب
 بها المثل، وسيل العرم في بؤرح برمانه العرب، والعزم مساة، وإنما كان حردها،
 ويقتل النحل والفصيل، وتحرب الصبيغة، وتأتي عني أرمه بركب وأخطم،
 وغير ذلك من الأموال والناس رعى الحسو السابير يدفعوا بها نوائق النصار،
 فلا يف صار خلق البصر لمسد من الله، وخلق الدرع من حيو لشيطان؟ والسور
 يهادي به عني كل شيء حنقه الشيطان، من الحيت والعقارب، والمجعلان وساب
 وردن، والفأرة لا فع لها، وموئها عظيمة؟ فقال: لأن السور لو نال في البحر
 مثل عشرة آلاف سمكة! فهل سمعت بحجة قص، أو بحيلة، أو بأصحوكة، أو
 بالام، ظهر عني تلقيح هرة يلع مؤن هذا الاعتلال؟ فالحمد لله الذي كان هذا
 مقدار عقولهم وأحبارهم»⁽¹⁾.

أما أتبع لما يويه يرى فهم الخاطئ أساساً جهنوا الأسباب والمعاني وقصر
 عن تأمل الصواب فحرجوا إلى المحمود والكيب حتى أنكروا حق الأشياء.

(1) كتاب الحيوان، ج 4، صفحة 99.

«صواباً نوباً بهمان لا صعه فيه ولا تقدير . فكأنوا تمزله عمنان دحوا داراً . سب من ماء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من صروب الأطلعة والأشربة والمذاب ، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا بسعور فيه محجور به أنصارهم فلا يصرون هيئته انداز وما أعد فيها ، ورمى غير الواحد منهم بالشئ ، قد وضع في موضعه وأعد لشئيه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فهدم وتسحط ودم الدار وبانها» .

الدهرية

«ان تعرف الدهرية أولئك الذين كانوا لا يعتقدون لا الله الأحد ، ولا بالعلم ، ولا بالعبادة الإلهية ، وبشجون كل تعاليم الأديان بما فيها العفاف والنزاهة هي الآخرة ويؤمنون بأولية الرمان والمادة . ويذكر أبو عثمان في سياق تعريف الدهري أنه قالهم سباً ، بين القسح عده إلا ما حالف هواه ، وإن مدار الأمر على الإحسان والبر ، وعلى البدة والأمان ، وإيم الصواب فيما كان من المنفعة ، وإن قتل ألف إنسان صالح لئلا يلهي الدهرهم⁽¹⁾ .

* * *

في حمله هذه على الأقليات الدينية والدينية ما حذر الحافظ القصية العاسية وحسب ، بل حذر أيضاً وخصوصاً عقيدته المعتزلية ، وقد نصّ أحدُ أصولها الخمسة ، أصل التوحيد ، على ما يراه أنصار الشيعة (ررادشه وماويين) والمشبه (بصاري ، يهود) وبفدة وحواء الله (الدهرية) ، فأصاب هدفين برمية واحدة .

(1) كتاب الجيران ، ج 7 ، صفحة 6

(2) الذين يشبهون العبادة بالناس ، يرون أنهم صوابه

الفرق الإسلامية

إن المبدأ عينه الذي حمل المعتزلة على محاربة سائر الأديان جميعهم يصاً على مكافحة الفرق ولأحزاب الامة الأخرى وكان الخط الداعة الأول في هذا النسل ، لا سيما أن مصلحة العباسيين كانت بنفسها بذلك وفي هذه الفرق واشتيع ولأحزاب انتقد الحافظ خصوصاً الحشوية والرافضة والامويين والشعوبيين .

الحشوية والبابنة

كان العام لإسلامي في العصر العباسي مقسماً إلى معسكرين معسكر الحشوية والعمدة ، ومعسكر البلاط والمعتزلة . كان الأولون يتشبهون بحرفيه العرب والتقيد وبؤمور بالشبه ، وكانوا يمثلون الله وعباده وحلال وعيب ، وهذا أمر تأباه المعتزلة فضلاً

أم لبابة فهي قسم من الحشوية وقد كان الخط عبقاً في الرد على هذه الفئة التي كانت تتكاثر يوماً بعد يوم ، ورده عبقاً تواطؤهم ولأمويين على رعية أسس الخلافة القائمة .

الرافضة

بعد تحمي الحسن بن علي تفرقت الشيعة في البلاد الإسلامية وعممت في الخفاء على استرخاء وحديث وبقود هذا الصانع كان دأبها في الخنس المديني تمجد شخصية لإمام علي وإقامة ما شب حديثه مثل لكن الاختلاف فيما بينها على وضع أسس مشتركة في العنيدة والعمل فتمتصها عرفاً ومدرس شتى يكاد لا يجمع بينها إلا الانتساب للإمام العظيم .

في تحييه هذه الفرق واندارس عند بحثه مختلف ابو صبيح ، كان الجاحظ يميز بين فرعين لربدية ، أي الشيعة المعتدلة ، والرافضة ، أي الشيعة المتطرفة

وما كان العباسيون يعتبرون أنهم هم «أهل البيت» الحقيقيون ، فقد سعوا إلى الخط من المقام الرفيع الذي تبوأه الإله م عني بفصل الرافضة ، كما سعوا إلى استماله الرياية التي كانت على علاقه صميمية وثيقة بالمعربة وهذه العلاقة لم تقتصر على الساحة اللاهوتية وحدها من تناولت بعض العقائد الدينية والسياسية وهذا ما يبرر تحفظ الجاحظ بصددهم عندما كان يشن على علاه الشيعة هجماته لضعفه .

كان الجاحظ ، في نقده الرافضة ، يُشبهها بالمناوية ناره ناساً إليها الرندقة وبالحنوية أو بالدميين تارة أخرى عارياً إليها التشبيه

وفي عمرة اندفاعه الجامح كتب أبو عثمان رسالتين «لعثمانية» و«مسابل العثمانية» حول فبهما لرهمة عني عظمة أبي بكر ، كما حاول أن يبرهن عني عظمة معاويه في رسالة «الإمامة» ، ثم ناقض نفسه عندما حطّ من شأن هذا الخليفة الأموي في غير محال .

الأمويون

حشي العباسيون دائماً رده فعل انقلابية يقوم بها للأمويون فكان دأبهم أبداً احصاص شأنهم وتأليب الناس عنيهم لدا حمل دعائهم ، والجاحظ في لطبعه ، حملة شديدة عنيهم

نقد طاب لأبي عثمان أن يحمل عني الأمويين لسين بررين ، أولاً لأنهم أعداء بني العباس ، وليء نعمته ثم لأنهم قتلوا الشهيد المعتزلي عبالا اندمشي⁽¹⁾

كانت مهمته دقيقة حرجة في هذه السبق فكيف نره يشنع بني أمية ولا يحس أباء عمومهم ، العباسيين غير أنه استطاع ، بفصل لفاقته ، أن يُحس التحص

(1) عنه هشام بن عبد الملك

ففي رسالته «فصل هاشم عن عبد شمس» أقرَّ بعض صفات لعبد شمس، حدَّ الأمويين، ثم استدرك فأعلن أن هؤلاء دون الهاشميين، أجداد بني العباس مرَّة، وخلص إلى إنكار حقهم بالخلافة.

وما اكتمى لحظ بأن سب اعتصاب الخلافة إلى معاوية وسلالته، بل شبه أنصاره بالابسة، وعرا إليهم من الهرطقة ألواناً.

الشعبوية

بعد الملاحظات الواسعة التي حققها للإسلام لم بعد دين شعب مصطفى عليه، بل أصبح ديناً عيباً ولا عرو وقد اعنفته عبصر معددة الأحاس والبلاد عرفت بسوالي وهؤلاء، رغم استعراهم من حيث البعة، ما كانوا ليصرحوا بالمجموعه العربية ويتكروا لمصيدهم ونقلدهم وعدانهم

كان معظم الموالي من أهل فارس، وكانوا يحتفون ثمناً عن المعتبر القدمي في الإسلام (كجدِّ الخاط) الذين سوا أو حاولوا أن يسوا أصيدهم الأحسي ليذوبوا في البوتقة العربية الكبرى.

بعد أن تدق المواي، المعروفون شفافهم وبراعتهم في الأعمال، نحو العرف، أحد الانقسام بين الحصر، وجلَّهم من سوالي والبدو، يمر يوماً فيوماً صار الأولون يتولون تدريجاً شؤون البلاد العامة ويديرون مورها وما اشه العباسيون إلى هذا الخطر إلا بعد أن ستمحل، فعنأوا كن قواهم لصد تيار الشعبويه وهذه الفئة، كما هو معروف، تقوى بالمساواة بين الأحاس في الإسلام ولا فصل على آخر إلا بسة تقره، وهي سكر بالتالي على العرب أي أفصلية.

وردت عنى الشعبوية ودعاتها، وضع الخاط كتابيه «البيان والتبيين» و«البحلاء» وعده رسائل، يعضم شأن العرب في حصرتهم وآدابهم وتاريخهم، حاملاً عنى الشعبويين المستترين بالإسلام سحر البردة الصادره عن مدهي ررادشت وماني حيث له دعوة بحصرة الفارسية ومحد بني ساسان

«واعلم أنك لم يرقماً أنتقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على ديه ولا
أشدّ اسهلاً كالعرضه ، ولا أطول نصب ، ولا تقلّ عساً من أهل مدد لحة ، وقد
شمى لصدور منهم عجم طول حثوم الحسد على أكادهم ، وتوفد بار الشان في
قربهم ، وعسان تلك المراحل عثرة ، وتسقر تلك البراب المصطرفة ، ولو عرفوا
الحلاق كل مدة ، وري كل لغة ، وعلمهم في الحلاف بشارتهم ولاتهم وشمالهم
وهماتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ولم يحتفوه ، وهم يكفرون لأراحوهمهم ،
وتخففت مؤنتهم على من حالهم»^(١) .

بما دعا إليهم كل أسباب الضور الديني والشكك في العقيدة ، وما ترك قبيحة
إلا وانصفاً بهم ، كما شأن في كل حملاته على من عصب هو العباس عليهم .

فئات المجتمع

أدحت للحاحظ ظروف حياته أن يتصل بمعظم طبقات المجتمع ويعاينها فيدرسها بتدقيق من الخليفة والبلاط، إلى السور حورية المستحدثة، إلى أصحاب الصاعات، إلى حمهور العامة، بصور نارية ويمدح نارية ويقدمح ناراب .
فما هي أهم الفئات التي لفته خصوصاً فتاولها قدمه ؟

الخليفة والبلاط

كان للخليفة حرمة فريدة من الحاحظ فهو لم يكن أمير المؤمنين وحيداً السي الكريمة فحسب، بل كان عاهلاً رمتاً ورئيساً ديتاً، يوم لم يكن ثمة رسوم يحد من سطة العاهل، وفي سنة ثمد من بلاد الصين إلى بحر الأبيض المتوسط رغم أن الحاحظ لم يكن من حاشية البلاط، فقد كان له من النفوذ الأدبي ما أتاح له أن يلام غير خليفة ووزير، ويعرف دجال الأمور لبطعها عليها بدفته اليهود فقد روى أن بعض الخلفاء كان يستند الأحمر ويستعد الصوت الحسن، وأن المهدي هام بخارية اسمها «جوهر» أوحى إليه بعض لشعر .

وأشار الحاحظ إلى معالاب عصرية تنم عن عقنية ملوك واسماصهم كما تظهر سطوتهم على الشعب وروى أن سعة صدر الخلفاء احدثت لأداء والعلماء ولصاين إليهم فتصرو في حصرتهم، في شؤون الدعة والأرب والفسفة والقديون، وحتى في قصايا السياسة والدين وأصاف مؤكداً أن الخلفاء ووراءهم ما أبدوا فقط تساهلاً في مثل هذه الأمور بل شجعوها واشتركوا فيها . وكثيراً ما نوقشت، أمم أمير المؤمنين نفسه، قصاص تحالف ري المسمين في الله وخلق

لم يستأثر الخاطئ وحده بذكر هذه الوقائع، بل أوردها أيضاً المسعودي والأصعهاى وابن قتيبة وغيرهم من كتّاب العصر

ومن مسائل بني دونهما أبو عثمان مرسوم البياقة المتبعة في التعرية وما إليها من محاملات البلاط⁽¹⁾ ومفروشات المحاليس في الصيف والشتاء⁽²⁾، والمآكل التي كان يؤثرها الخلفاء على سواها⁽³⁾.

إلا أن في البوحة التي رسمها صاحبنا عن حياة الخلفاء والمقرئين منهم لمسات تعورها الخرافة. والملكات المتطرفة أحياناً التي كانت تعتقد حقائقها في القصور، والتي أفاد المسعودي والأصعهاى (في مروج الذهب والأعالي) في وصفها مرة عنها الخاطئ مروراً خاطئاً. وقد أعصى كدس عن استدراك العظماء وشذوذهم وأطوارهم ولم يشر إليها إلا مداورة، فصيح فيه قول لشاعر.

«وعن انرصي عن كل عيب كيدية»

* * *

المشعودون

كانت الثقافة الصحيحة التي تشبع منها الخاطئ وقفاً على فئة محدودة من الناس أما عامة الشعب فكانت قابعة بجهلها يروقها هوس العاطفة وتندبها أوهام الخيال كدر من الطبيعي في مثل هذه الحال أن يكثر المشعودون وأصرابهم فيهدوا من سداحه السطاء والبدنيين، فإذا هذا طيب يرغم أملاك الدنيا الشمس لكل علة، وإذا هذا منجم يسد كفتاح بعيد، وإذا هذا لك ساحر كيف على هواه مصابر

(1) البيه والنبير، ج 3، صفحة 214-2

(2) البيه والنبير، ج 3، صفحة 66

(3) الحيوان، ج 1، صفحة 283.

البشر ، فضلاً عن المفسرين من أصحاب الحل والربط في بؤع التميم ولئن حمل الجاحظ على حد ع هؤلاء المستثمرين ، فهو لم يرحم سداحة صحاياهم ، فشمس الفتين بقمته كما سرى .

الأطباء

ما استهدف الجاحظ في هذه لأطباء ، بوجه عام ، بل المربين منهم أو ذوي الخشع . أما الحقيقون أصحاب الرسالة من تلامذة حانيوس وأبقراط وبحتيشوع فكان يجههم ويستشهد بأرائهم كلما تطرق لمضيه علمية لها علاقة بهم

على المربين لأعبيء كانت شهادته قطعه مرمة بفصي بقطع دابرهم لا سيما إن لعب بهم العرور أم عن ذوي الخشع فيقول لا يردد عنهم يهللون لا تشتر المرض حتى تفتح أمامهم أبواب الررق . فلو أرشدو إلى ما يحسم العمل لبرت سوقهم حمداً ، ومن هه كان شرهم أكيداً

المحموم

رأى الجاحظ خطر المحموم أشد أثراً من خطر الدخايل من الأطباء ، لأنهم يرعمون السوف بالمستقل واكتشاف العيب عن طريق الكواكب فنسبهم العامة لشعورهم وتشبههم بالأساء وقد دفع صاحبنا إلى مقارنتهم أمرا مهمان بالنسة إليه . أولهما إثبات صحة نوة رسول المسلمين ، محمد بن عبد الله ، وقد شاء بعضهم أن يشك فيها ، ثم بزعه الفطرية إلى قمع العش آتى واحد .

وفي سبيل فصيح أكاديب المحموم عمد الجاحظ إلى مقارنتهم برسل السماء ليس بعد الشقة بين الفريقين فالمحموم في رأيه ، قلما يصيرون الحقيقة بيما الأسياء معصومون من الضلال ولكن للمحموم ، مع هذا ، أثرهم على العامة ، فهم إذا كذبوا لا يكشف كذبهم على الو ، لأنهم يتحدثون عن المستقل . أما إذ صحت مصادفة إحدى نواتهم المزعومة فمجدهم وطيد مستمر^(١)

() ثمونه رسل الجاحظ ، صفحة 139

وعلى طريقته الهزلية المأثوفة شبه الخحط المحمين باله خالين من الأطاء،
أولئك الذين إن مات مريضهم سبوا موته إلى الأقدار، وإن شفي، وقبما يشفي،
تجّحوا بفعالية العلاج

ولم يفرّد صاحب باحمله على المحمين ذرءاً لشهرهم المستطير، بل حمل معه
عشهم غير ثائر وشاعر "ما أسهل أبو تمام قصيدته في تهئة المعنصم بفتح عمورية
مدد، بأكايت المحمين؟"

المفسرون

جعل الجاحظ في فئة المشعورين بعض جهنم من مفسري القرآن والحديث
مهماً بارزاً، ووضع في طبيعتهم نقائص الدين كانوا يقيمون الأحاديث
حسب أهوائهم ومصالحهم فعنى عرر المحمي والسحرة كاب بعض القصائص
يتعشون من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة كانوا يؤولونها ويشوهونها
قصداً تدعيم سلطانهم على العامة وكان على الجاحظ أن يبرع سار لشعورده
عن هؤلاء المفسرين المسوّهين وبعضهم بوابهم الدينية وحقيقة يعودهم رافض
وسية لحأ إليها لإظهار سخافتهم كانت سرد بعض تفسيراتهم معفاً عليها نارة
ومسعيباً عن التعليق طوراً، وفي هذا يقول.

«رغم بعض المفسرين أن السور خلق من عطسة الأسد، وأن الخبر خلق
من عطسة الفيل، لأن صاحب التفسير يرغمون أن أهل سبعة نوح لما تأوا من
كثرة القار وشكوا إلى نوح دث سأل ربه الفرح، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس
فما عطس حرح من محريه روح ساير، ذكر وشي، حرح الذكر من اسحر
الأمس، والأشي من المسحر لأيسر، فكفهم مؤونة الخرداب ولد تأدوا برائحه
نحوهما شكوا دث إلى نوح فشكا دث إلى ربه، فأمره أن يأمر الفيل فيسبح،
فسبح روح حارير، فكفهم مؤونة ر نحة البحر وهذا الحديث وفق عبد العوام

(1) السيف أصدق أباء من الكتب

وعند بعض القصاص، وقد أنكروا أن يكون القار تحقق إلا في أرحام أمهاتهم من
«صلاّب دكورها»⁽¹⁾

وفي مجالات أخرى يهدد الحاحظ مراعاة هؤلاء المشعورين بصدد الحرّ
والنباض والعول والحيتات ويدعو لعامة إلى إلقاء حدائهم وإغلاق باب الارترق
في وجههم⁽²⁾

«لا تسترسوا إلى كثير من المفسرين، وإن بصّروا أنفسهم لعامة، وأحاربوا
في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية، على غير أساس، وكما كان
لمفسر أعرب عنهم، كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة والكسي السري
والضحاك ومقاتل بن سيمان وأبو بكر الأصبم في سسل و حدة، فكيف أثق
بتفسير، وأسكن، إلى صوابه، وقد قلوا في قوله سرّ وحلّ (وإن المساحد لله)،
إن الله عزّ وجلّ لم يعر بهذا الكلام مساحداً الذي صي فيها، بل إنما عني الحياه
وكل ما سجد الس عليه من يد ورجل و حبة وأف رثّة، وقالوا في قوله
بعدى. ﴿أبلا مطروب إلى الإبل كيف خلقت﴾، إنه ليس الحمل والوق، إنما
يعني السحاب، وإد سئوا عن قوله ﴿ووضح مصود﴾، قالوا الطبع هو المور،
وحصوا الدين على أن شهر رمضان كان فرضاً على جميع الأمم، وإن أساس
غيره، فوله تعالى ﴿كس عليكم الصيام كما كس على الدين من قبلكم﴾،
وقالوا في قوله تعالى ﴿رب م حشري أعمى وقد كنت بصير﴾، قالوا يعني
إن حشره بلا حجة، وقالوا في قوله تعالى ﴿وإن لمطمطمس﴾ والويل وإد في
حهم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي، ومعنى الويل في كلام العرب معروف.
وكيف كان اجهلية قبل الإسلام؟ وهو من أشهر كلامهم، وسئلوا عن قوله
تعالى ﴿من أعور برأى﴾، قسوا لصق ورد في حهم، ثم قعدوا يصفونه،
وقل آحرون الملق المقطرة سعة لبس، وقال آحرون في قوله تعالى ﴿عب فيها

(1) الحيوان، ج ٩، صفحة ٦٦

(2) الحيوان، ج 4، صفحة 164؛ ج 5، صفحة 4؛ ج 2، الح

تسمى سببياً» ، فالو أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة بعض ، قانوا : وإنما هي : سبب سبباً إلهياً با محمد ، فإن كان كما قالوا فأين معنى «تسمى» وعلى أي شيء وقع قوله «تسمى» ، فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشيء ؟...

المعلمون

لم تكن للمعلمين سمعة طيبة عند العرب على وجه العموم ، وقد يكون ذلك نتيجة راسب من العهد الذي كان فيه المعلمون عبيداً أو يهوداً^(١) ، أو نتيجة سوء مسلك بعضهم وحقاره فوسهم

وقد وصح المحاضر رسالة خاصة في المعلمين ، صاع أكثرها ، صممتها كانت قارصة لنحط من قدرهم .

بقول أبو عثمان في مقدمة إحدى حكاياته أنه كتب كتاباً عن المعلمين وبهماتهم ، ثم اتهم له أن عبر على كتاب فوجد معيماً في هيئته حسه وقممش مسح ، قم إليه وأجلسه معه فآخه أبو عثمان في القرآن فبدأ هو ماهر ، وفي شيء من الحروف هو ماهر ، ثم في أشعار العرب واللغة ، فبدأ به كامل في جميع ما يُراد منه ، فقل في نفسه لا بد من صرف النظر عن كتاب المعلمين وكان كل قليل بتفقهه وبروره . إلا إنه أتى يوماً لزيارته فوجد الكتاب معلقاً وهو يروي المحاضر الواقعة بنفسه بقول :

«فسألت حيرانه . فقالوا : مات عمده ميت . فقلت . أروح أعريه فحنت إلى يابه فطرفته فحرحت إلى حارية قالت : ما تريد ؟ قلت : مولاك فقلت مولاي جالس وحده في العراء ما يعطي لأحد الطريق قلب . فولي له صديقك فلان يطلب أن يعرك فدحت وحرحت وقلت بسم الله فعبرت إليه فبدأ هو جالس وحده ، فقلت أعظم الله أحرك . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، وهذا سبيل لا بد منه فليكن الصبر ثم قلت أهذا الذي توفي ولدك ؟

(١) موسوعة الإسلام ، ج 3 ، صفحة 41

قال : لا . فنت هو الذي ؟ قال : لا . فأتيت . فقلت : لا . قلت : من ؟ ..
 قال : حبيبي . فقلت في نفسي . هذا أولى الناس . وقلت له : سبحان الله . تحد
 غيرها . وتقع عيبك على أحسن منها . فقال . وكأي بك وقد طبت أسي رأيتها .
 فقلت في نفسي . هذه محبة ثاية . ثم قلت . وكيف عشقت من لا رأيتته ؟
 فقال : اعلم أبي كنت حالسا وقد راح عابر يعني وهو يقول

يا أم عمرو حراك الله مكرمة رذي عبي فودي أجمما كانا

«فقلت في نفسي . نولا أن م عمرو هذه ما في الدب مشها ما كان الشعراء
 يتعزلون بها . وما كان بعد يومين غير علي ذلك لرحل وهو يعني ويقول .

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

«فعمت أنها ماتت . فحريت عليها وفعلت في العراء منذ ثلاثة أيام . فقال
 الجاحظ : فعادت عريمتي وقويت عني كدبه الدور الحكية أم عمرو

وتنسب إلى الجاحظ عدة حوادث على هذا الطراز نورد منها على سبيل المثال :

«مررتُ بمعجم صبيان وعدده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل
 وبرق . فقلت : ما هذه ؟ قال : عندي صغار أوبس فأقول لأحدهم قرأ لوجه
 فيصهر بي فأصره بالعصا القصيرة فتأخر . فأصره بالعصا الطويلة فيهر من
 بين يدي . فأصع الكره في الصولجان وأصره فأشحه . فيقوم إلي الصغار كنهم
 بالألوح . فأجعل الطبل في عنقي وأنوق في فمي وأصرب لطنج وأصيح في
 البق . فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم»^١

«مررتُ على حربة فإذا بها معجم وهو يسبح سيح لكلا ب . فوقفنا أنظر إليه .
 وإذا بصبي قد حرج من در فقصر عليه المعجم وحل بمطمه ويسه . فقلت :
 عرفني حربه . فقال : هذا صبي لثيم يكره التعيم ويهرب ويدخل الدار ولا
 يخرج . وله كب يعب به فإذا سمع صوتي صرَّ أنه صرَّت الكلب فبحرج
 فأمسكه»

(١) رسالة المعجمين

«رأيت معصاً في الكتاب وحده، فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون فقتل: أحب أن أراهم فقال ما أشير عيتك بدست فقتل لا بد. قال: وقد حئت إلى رأس الدرب أكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعصم فيصنعواك حتى تعمى»

غير أن الملاحظ أن هريء بالمعلمين الذين كانوا من لفئة التي ذكرنا ما شهدنا، فهو قد منح غيرهم تمس شرفوا مهنتهم ورفعوها إلى مستوى لرسالة حيث يجب أن يكون، وقد به لا يسلم مطلقاً بقول بعضهم إنه لا ينبغي أبداً أن يؤخذ رأي المعلم أو الراعي أو ربه النساء، ولا أن تقبل شهادتهم هي المحاكم⁽¹⁾، أو قد يصححون، خلفاء وملاطين⁽²⁾

وبعد أن نُسَمِّي عدداً من المعلمين ساررين يقول أنه لا يجب أن تحتقر رسالة المعلم لمجرد سخافة بعض المعلمين أو سوء تصرفهم، فهي مهنة العليم، كهي كل مهنة أخرى، عناصر باررة وعناصر ترحف في الظلام⁽³⁾.

وطبعي أن يدافع الملاحظ عن المعلمين، وشفافة عنده حرمة ولا أرفع فالمعلمون والعلماء الذين حمل عنهم ليسوا إلا المشعورين والمستثمرين الذين كانوا يحقرون الثقافة ويسخرونها لاسرار مال السباح من الناس أما العلماء الحقيقيون فكان يرفعهم إلى الأوج

الكتاب

هي أيام الإسلام الأول كان للكتاب مناصب خطيره، هي عيشها التي شعلها للوراء من بعد على أثر إنشاء منصب لوزارة الرفيع في عهد أبي العباس وأتباع الصريقة السلسلية في الإدارة. ومن ذلك الحين نصائل شأر هؤلاء فأصبحوا مأمورين عاديين

(1) البيان والبيان، ج 1، صفحة 208

(2) البيان والبيان، ج 1، صفحة 71

(3) البيان والبيان، ج 1، صفحة 76

وعلى رغم تيسر أوصاعهم صل لبعضهم سي، من العود، لكنهم كانوا على الإحسان حساء، يعملون بروحي الدسائس. وكان همّهم الأوحاد الترقى في مناصبهم وفي سبيل تحقيق هدفهم كادت تهوى كل الوسائل والكرايمت. وقد حصرت غير كاتب هذه الطلقة الوصولية بعض أدبه محاولاً أن يروّدها عما يلزمها من ثقافة ولياقة وأخلاق⁽¹⁾

وقد حمل ادعاء هؤلاء الخاطئ على بيان واقعهم كما هو، فرسوم لهم صوراً لا يجاريها دقة وظرفاً إلا صورته عن البحلاء، ومن هذه الصور

إنهم عرر يدعون الذكاء، إن مدحهم أحد الناس، لعبة في نفسه، فمأسوا كاطاوس وحسبوا أنهم سادة الرأي وولاه الأمور فيقدر ما يحضرون لرؤسائهم بقدر ذلك يتكاثرون على عامة الناس⁽²⁾.

إنها نفسية المأمور الوصولي في كل زمان ومكان بعد أبو عثمان إلى صميمها كما نهد إلى أعماق بحيل أو حاسد كل عصر وعصر.

ويريد صاحب صورته توصيحاً فيقول إن مهمة الكاتب هي من المفارقة حتى لا يدرسها إلا الخدم والأساح وما إليهم. وليس في التاريخ عظيم راولها⁽³⁾ ومع هذا يتباهى الكتاب بمهنتهم ويتفاخرون في الدح ولطهو، يظهر الأساد وحسب واحدهم أن يشعل مصباحاً ويرى أشيرة أمامه ويحفظ شيئاً من بودو بررحمهم حتى يحال نفسه حكم الثقافة ورب الطولة.

وإذا ساءوا اسمدى في إظهار عظمهم تطحوا لقد القرآن الكريم وتركبه وإب لم يحدوا عربياً يحملون عليه ساءرو فيما بينهم.

وروى حاشف أنه دخل يوماً ديوان امكثات في بغداد فرأى قوماً قد صبقوا ثيابهم وصعدوا عمامتهم ووشوا طررهم، فقال «هؤلاء كما قل الله تعالى فأما

(1) هؤلاء كرام المفسدين «صح الأعيان» «الصور» «ب» فيه في كتابهما «دب الكاتب»

(2) ثلاث رسائل مفكر، صفحة 40

(3) ثلاث رسائل مفكر، صفحة 42.

أريد فيذهب حذاء صواهر بطيعة، وبواض سحفة، فويل لهم مما كتبت بأيديهم
وويل لهم مما يكسبون».

وما كان المسعودي ولا ابن قتيبة يورسان⁽¹⁾ تقديمهما اللادع عن هؤلاء لجهة
المعطرسين، إلا أن تصوير الخاط، الكاريكاتوري يبقى فريداً في بابيه.

التجار

إن حمل الخاط على الكتاب «الطرويس» فأرهبهم بسهم نقده، فقد امتدح
استقلال التجار وعزة نفوسهم رأى أنهم أسعد الخلق لأن لهم من القوة في
بيوتهم ما لملوك على العروش فهم يسرون مرعمين على نوسل عمة العظماء،
ولا على انقاء ردة فعلهم إن لهم حرمة شاملة ورأي مسموعاً، فكان من الطبيعي
أن يكون لهم نفوذ كبير في كل مكان⁽²⁾.

وبدليلاً على هوق تنحدره يذكر الخاط أن أسرة النبي الكريم قد عارستها
واشتقت منها اسمها فكلمة قريش مشتقة من قروش. ومحمد بن عبد الله عسه
راول التجارة في مرحلة من مراحل حياته⁽³⁾.

وإذاً يظهر لخصائص الرمعة التي تُسير التاجر عن عامة الأثرياء لا بعض عن
اتواضح بأن يسرهم الماني ما كان يمنعهم عن تدقيق فصايا لفكر والهنّ معدداً
على سبيل التدايل غير اسم معروف بينهم في عالم الآداب والعلوم

لكنه إن أعجب بالتاجر المستقيم المحلص فلم يتوان عن القدرح بالحسيين
بسهم الدين يستثمرون، بدناء، سداحة الشعب، ولا أن يشع بالمرتقة عيب
أندره وقد ربا على ذلك أمثلة بديعة في وصفه المستثمرين الحلاء.

ولا بد لمن يسمع إشادة الخاط بالتجار واستغلائهم من أن يدرك مدى الأهم

(1) مروج الذهب، ج 6، صفحة 29-30 وأدب الكاتب، صفحة 7.

(2) مجموعة رسائل، صفحة 155.

(3) مجموعة رسائل، صفحة 157.

العميق الذي كان يساوره، لأنه كتب مصطراً لأن يصنع العصء حياً في سبيل تأمين ررقه فهو لو كان ميسوراً متحرراً لما كان يدفع هذا الانسحاق في إعجابه بهم.

المرحّمون

كان لحركة الترجمة أثرها الخير في ازدهار الحضرة العباسية، إلا إن هذه الترجمة ما كانت تحو أحاداً من السواب، فإلزامهم في الصوص الترجمة كان شاعراً والتفسير السيء مألوفاً ومردود إلى قبه التعبير النقية في لغة الصاد بقدر ما مرده إلى الترجمة عن غير لأصل¹ أو إلى جهل بعض المترجمين

وكان عدم وثوقه بالمترجمين يدفعه إلى الخط من شأنهم ودحض الأكاديب التي يلحأون إليها لتبرير مواقفهم، وإلى فصيح غوراتهم وحط تأييلهم وتقدهم وكثيراً ما وجد بينهم وبين لخرة أو الصيادين قرابة وثيقة من حيث المانعة أو التلغيق في سرد الأحبار والأساطير².

في معرض نقد المترجمين يدي الخط ملاحظات قتمه بصدد الترجمة وصعوباتها وتعدر وجود المترجم الأمثل «إن المترجم لا يؤري أبداً ما قال الحكيم عني حصائص معديه، وخصائق مدهمه، ودقائق احصاراته، وحقائق حدوده، ولا يقدر أن يوفيهها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يرم لم كيل ويحب على الحريء، وكيف يقدر على أدائها ونسليم معانيها، والأحبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم معانيها، واستعمال تصاريف لفاظتها، ونأويلات محارحها مثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن عمة وأبو فرقة وابن قهر وابن وهيب وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ومسي كان حاله مثل أفلاطون؟ ولا بد لترجمان من أن يكون بيانه هي نفس

(1) كواير حمون غالباً من السريانية في العربية والترجمة السريانية مأخوذة بدورها عن نيونانية

(2) الحيون، 6، صفحة 9 وصفحة 280

الترجمة هي وزن عظمه في نفس المعرفة، ويسعى أن يكون أعلم الناس بالغة المقولة
والمقولة إليها، حتى يكون فيها سواء وغاية، ومتى وحداه أيضاً قد تكلم بلسانين
علم أنه قد أدخل الصم عنيهما، لأن كل واحد من العتين تحذب الأخرى،
وتأخذ منها، وتعرض عليها، وكيف يكون تمكس الحساب مهما مضمعين فيه
كنمكة إذا مررد بالواحدة، وإما به قوة واحدة، فإن تكلم بعة واحدة، استغرقت
بك لقوة عنيهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لعين، على حساب ذلك تكون
الترجمة لجميع السمات، وكما كان الباب من العنم أعسر وصيق والعنماء به أقل
كان أشد على المترحم، وأحذر أن يحطى فيه، ولن تجد البتة مترحماً يهي بواحد
من هؤلاء، هذا قولنا في كتب الهندسة والسجيم والحساب والسحور، فكيف لو
كانت هذه الكتب كتب دين...^(١)

وهذا الحكم لصارم في الظاهر لا يحلو من الموضوعية، وذلك لأن تعلم
العب في ذلك العهد ما كان عميقاً، الحدور قد كانت تقع أحشاء حسيمة وحتى
أويلات معاكسة لمعنى المقصود. وكان يريد هذه الترجمة المشوهة تشويهاً
جهل الساج ومن نتيجة لترجمة المعیوبة هذه أساء انعلاسة العرب الأولون
فهم آثار البوب الفلسفية فعروا إلى «رسطو بعض كتب أفلاطون وبروكليس»،
لكن الملاحظ كان حارماً في بهه إمكان العمل الأمين، فكانه لم يكن شديد التناول
بسيحة التقدم في علم السمات...

البحريون

كان البحريون في عهد الملاحظ من الفئة السائرة التي تنجشم الأسعار البعيدة
ونشاهد البلدان العريية، وكثيراً ما عاد هؤلاء إلى ديارهم مذهوشين بـ «أوه
هلا يستطيعون التعبير عن دهشهم إلا باحتلاق الأساطير. والناس «موكلون
بحكمة كل عجيب، وميسرون للأحار عن كل عظيم، فصررت المثل بكذبهم
وحرافاتهم»

(١) الحيوان، ج ١، صفحة 38

كثيراً ما توقف أبو عثمان عند حكايات البحريين وفسه وبتحدهم محاداً
لنتهكم عليهم كما في قوله ، «رسمعت حديثاً من شيوخ ملاحى الموصل ، وأنا
هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم ، ويتقله جميعهم ، ورعموا أن الأسد ربما
جلى فقس السفينة ، فيتشبه به ليلاً ، وملاحون يمدون السفينة ، فلا يشكون
إن القس قد انتف على صحرة ، أو تعلق بحجم شجرة ، ومن عادتهم أن يبعثوا
الأول من المدادين ليحله ، فإذا رجع إليه الملاح ليمده الأسد بالأرض ، ورقبها ،
وعمص عييه كيلا يضر ويصهما بئيل ، وقد قرب منه وثب عليه فحطه ، فلا
يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء ، وعورهم إليه ، وربما أكله إلا ما
بقي منه ، وربما حر فريسته إلى عريسه وعريه ، وإلى إحرائه وأسله ، وب ذلك
على أميال^(١) .

ولكن الحاحط ، مع هذا كان يسند إلى احبار البحرىين في تحقيقته لعمية
عدم يوق من صحتها ويتحده ويتحده حجة أحياناً في انرد على فصايا علميه لم يقتنع
بها . وقد اتفق له أن استد إلى رأي أحد البحرىين ليحاج أرسطاطاليس في بعض
رده عيه :

«وقد قلت لرحل من البحرىين ، رعم أرسطاطاليس أن السمكة لا تنزع الطعم
أبدأ إلا ومعه شيء ، من ماء . مع سعة المدحج ، وشره النفس ، فكان من جوابه أن
قال لي - ما يعبه هذا إلا من كب سمكة ، أو أحرته به سمكة ، أو حدثه بدلت
الحواريون أصحاب عيسى ، فإنهم كانوا صيادين ، وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا
البحري صاحب كلام ، وهو يتكلف معرفة العلى ، وهذا كله جوابه»^(٢) .

إن دى هداك الاستشهاد - عن البحرىين إلى شيء وإنما يدلان على تحفظ الحاحط
في نقده طبقت المجتمع . فهو يميز دائماً في الطمعة الواحد بين العصر الصالح
والعصر لطالح مسنداً إلى البرهين المنطقية

(١) الحيوان ، ج ٢ ، صفحة ٤٥

(٢) الحيوان ، ج ٦ ، صفحة ٦

المتصوفون والرهّاد

ما كان المتصوفون والرهّاد يبقوا هوى في نفوس أهل السنة لأهم كانوا في نظرهم مفكرين أحراراً يميلون إمّا إلى التحرير الروحي ، وإمّا إلى توسيع آفاقهم الدنية وفي كلا الحالتين كانوا يتعدون برهدهم شيئاً فشيئاً عن الصراط الإسلامي المستقيم تحت تأثير اليهود والنصارى وأتباع مآبي

وفي سبيل صدّ نوار الصوفية الدافق بسست السلطات الدنية الرديفة إلى هذا المذهب وعاقبت أتباعه على غير هوادة .

في حملته على هذه الفئة « لشدة » كان المحاط يسبب إليها الخدع الديني لتحفيرها ، ولا يدحر هراً ، ولا لدعة ، للتعريض بطرقها ومعتقداتها الخاصة لقد قسمها طقات ، فانهدهم عند المتكلمين المشككين يقوم على سببه الشك إلى العير وعند الخوارج هو إظهار هول الخطيئة دون أن يروا ما يقوم به من اضطهاد أم بين الرهّاد أنفسهم فالكسالى منهم يعطون بالانصراف عن المعام يسما هم يتسولون بغير^(١) .

وشر ما كان يحشاه أبو عثمان هو أن تنقل إلى الإسلام ، عن طريق المتصوفين والرهّاد ، بعض أسائير المسيحية والندوية فمس صلابته ، لا سيما وأن السست الذي ألمح إليه غير مرة كان حداثاً في الشيوع باستمرار .

المتكلمون

كان من أثر علم المنطق الذي راح يفصل الرحمة عن الفلسفة اليونانية وأرسطو بوع خاص أن الفئة المتقعة من المسلمين راحت تفكر في قصاياها الدنية على صوء حسد لقد روههم منطق بحجج مزرعة ووسائل تفتش فعلة تضاءل أمامها الأسالب الدائرية ، فشأ عن هذه الحاجة الدنية علم الكلام أو من التعيل الاسنوبي في حلقة أسرار الدين وارهه رارهراً سريعاً

(١) السيو ، ج ١ ، صفحة 28

كثيراً ما اعتقدت حلقات المثقفين حول المواضيع الدينية أو الفلسفية لمناقشة آراء مختلف لشيعة، فكر شار علم لكلام في اللاهوت، شار الرأي في انقانون، أي التوجيه إلى لوثوق بالتعليق الفردي انسيم مع الإيدن بالوحي وأحاديث النبوة

أعتقد المتكلمون أن الإله لا يمكن أن يأتي عملاً تناقض العقل وبوحي هذه الاعتقاد كانوا يظرون إلى بعض الشؤون الدينية ومن أبرر أولئك المتكلمين كان المعزلة.

لن حمل الخاطئ على المفسرين المشعورين الذين كن همتهم الخداع لأجل التكسب، فيه نظر إلى المتكلمين المحققين نظرة كاذبة وإعجاب، كان يعر عبه أن يقوموا بأي عمل يحط من شأنهم، لذا كان صدماً في نقد من أساء التصرف منهم حرصاً على سمعتهم التي صر أن يرقى إليها أي شك

كان مثلاً يأتي أن يصيغ هؤلاء، وقهم انمين في مناقشات عقيمة كما سطره الحدة التي دارت بين أسير من رؤوس المكلمين: أسطام ومعيد حول مرايا الديك والكس، فحمل على انرحلين معاً آخداً عندهم مهاترات التي صرقتهما من مرحتهما في الدوع عن الإسلام وتوير أهواء الشعب وبعد أن أفرع جمعته في نقدهما أعس أنه إذا كان يضرب إلى هذه أسطره كصرب من أسليه، لأن التسلية إن جرت بالأحداث فهي لا تخور للصحيح من الناس¹

والتكلم الذي لم يسكن ثقافته ما كان ليختلف، بظر الخاطئ، عن المفسر المرتق، لأنه يوجه الناس نحو الخطأ، والتكلم الحقيقي هو من جمع إلى النقطة الدينية العميقة ثقافة فسيقية أعمق⁽²⁾

(1) الحيوان، ج 1، صفحة 200

(2) الحيوان، ج 2، صفحة 134

العامّة الجاهلة

بقدر ما كنت نير الخاطى حل المستثمرين بقدر دأك كنت نثيره جهاله
العامّة التي كنت تسلم لحيائهم ولا ترعوي رعم صح لصحيح فلدا كان
لا يصح عيها سنده محاولاً بوجيها نحو الشفوه الصحيحه واسطو ولما فشل
جهده الكبير تحرير هذه الفئة الضالّة من معتقداتها الصبائية، ولما حاب كل أمل
بإصلاحها، رأى من انعت السعي إلى تقويم عوجها لآنها أعجز من أن يفهم
وتفكر وتمثل الحقيقة⁽¹⁾ فهي سقاد طوعاً إلى تحيلات الكدبة والمكدي فتقبها
على علانها ولا تخاور حتى أن شدك في بعصب، سكاتها سمر مرر أكيد.

لقد اعبر أبو عثمان هولاء جهنة كارثة عني المحنّع فاشفق على الحكام
مبهم، لأنه ليس على الارض مهمة أعسر من تدبير شؤونهم⁽²⁾ أمّا البدو فكان
يرى في معصمهم لرأي عيه فيعد هم لأهم يعيشون بين انهناء ولا يرون أو
يعرفون عبره⁽³⁾

* * *

هكذا رأيا الخاطى يسعر ص بريشه حن صقت مجتمع عصره والطبع
كريكاتورى الذي علب على بعض صورده لا يحذف كثيراً من قيمتها، لأن
شيئاً من المصن المتأصل في صميمه يظهر حتى في أبعد شخصنة العاطفة فيحميه
على العودة إلى موضوعه من حديد مدفوعاً برغبة الأصاف قدر المستطاع
وهذا ما يبرر في كثير من الأحيان دفاعه عن امر ثم عن صده وما كان اس
قصة ليحمر للخاطى هذا التناقص

(1) البحلاء

(2) الحيوان، ج 2، صفحة 94

(3) الحيوان، ج 2، صفحة 137

حول بعض وجوه المجتمع

رأيت أن الخاطئ لم يبرح النقد الاجتماعي فقط، بل أفسح لمشاهدة الموضوعية المحررة محالاً كبيراً أيضاً. فالمراقب البارع، الذي أخرج عن معاصريه بوحدة صحة تكاد تكون شائعة، لم يعم عن رسم الإطار «والخلفية» بها، فبدأ هو بصور تصويراً دقيقاً أهم وجوه الحياة الاجتماعية كما تبين له

من أبرز ما لفته من مظاهر تلك «الخلفية» سطره الحرفات والأساطير الشعبية واختلاط الشعوب وازدهار الحركة الأدبية. وسحصى كلا من هذه لقاط المتفرقة، التي لا صلة بينها، بمقطع مستقل

الخرافات والأساطير

في كل مجتمع بدائي تنوحه أحكام الدس على شؤونهم بوحى شعور لا بوحى التعليل المنطقي، فتنتشر الحرفات والأساطير، وهام الخيال وبأصل تأسلاً يجعلها جزءاً من التراث المشترك وحسباً أن يشير ههنا إلى الأثر الذي كان لميثولوجيات ليونانية والمصرية والصينية والعمانية على الشعوب، خلال حقبات طويلة من التاريخ، رغم حدها بأعرق الحضارات، لعمري مدى هذا التأصل.

وما كان لحظ المحرر المشكك بساهل بصدد هذه الحرفات المؤثرة، ولا بأصولها الساذجة بسحفة حولها، كان يحصى كل شيء، لسلطان العقل، ولا يسلم بصحة شيء ما لم يثبت له بشك لا يقبل الجدل وإن احتاج إلى البرهان الحسي عمداً إلى الاحتبار المباشر أو حتى إلى عقق عمداً إلى المقارنة والتمحيص،

فشأ عن هذه الحاجة منه إلى الفعل والأسفار ومحالطة الناس على اختلاف
أجاسهم ومشاربهم

وفي سبل تبديد الأوهام وبرد الحرافات لطبل لجأ هذا لائق إلى السحرة أو إلى
التحليل ساعياً إلى تعويد معاصريه على اعتماد طرق جديدة في التفكير يُسيرهم
في طريق التقدم لعلمي وخصري ومن أهم الحرافات التي عني بالقصد عنها
حرافة الجحش .

الحب

يرعسون أن الحب طائفة من لكائنات مؤلفة من بحر ولهيب ، أو لهيب به ود
دحار ، نستطيع أن نتحد هيات شئ وهذه الكائنات ، المحبوبة قبل الإنسان ،
هي أمتة منه بأساً ، لأنها تخرج بحياة الأسس فتؤثر فيها تأثيراً سلباً لدرء أحصارها
وتدرك انتقامها لا بد من الصلاصم والتعاويد وقد وجد مستعزو لسداحة في
هذا المجال مورداً للدرق لا يصب .

إذ يحمل الحاحط على حرافات الجحش يتدر بماثرهم انسي تفوق لطيفة في
أهل بدم المؤمنين بأن قلعتهم باها الجحش يقو مهكماً إن حبر وسيلة تُريحهم
من التفكير والتعيل هي نسبة كل أمر عجيب إلى الجحش .

ومن طرائف ما يرويه عن الجحش ، بلهفته السحرة ، قوله أن بعض البدو كان
لا يجرؤ في الليل على صيد البعوضة أو لغزال لأن الجحش قد تحطى مثل هابن
لهيبتين ويرغم غيرهم أن الجحش نقيم في بلاد وبار التي قصى الله على أهلها ،
ثم يُصيف بأن هذه البعد أحصت البعد ، ولكن لوين لمن يتوجه إليها عمداً أو
خطأ ، لأن الجحش تدرّ عليه تراباً قد يعميه أو يقسه وإن سُئوا عن موقع هذه البلاد
أجابوا من توجه إليها أصابه ما أصاب أنصار موسى في التيه^(١)

هذه الأرواح سعوية نهية ، على رعمهم ، لتجده الإنسان إن ترك العالم

وعاش في انهر واعتسل مثلها بالماء الصافي ، وروى به ان نام بين دبين ، فيه قتلاً
يقتل^(١) .

ولطائفة اخرى هذه حليقة اقل شأن تعرف بالحن ما صرّ الحاحط عليها بهرته
ولا بقذعه

عن الحسن وسداحه العامة كتب أبو عثمان :

«ويقول الناس فلان مخدوم ، يذهبون إلى أنه إرا عزم على الشياطين والأرواح
والعمار أحابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له
صديق بليس ، ومنهم كربش الهندي ، وصانح الماييري ، وقد كان عبيد يقول
إن العامر حربص عسى إحابة العريكة ، ولكن لذب إدا لم تصح أن يكون له هيكلأ
لم يستطع دخونه ، والحينة في ذلك أن يسحر بالناس لذكر ، ويراعى سبر المشري ،
ويغتسل بالماء ، اقتراح ، ويدغ الجماع وأكل الرهومات ، ويوحش في الصافي ،
ويكثر دخول خرباب ، حتى يرق ويبظف ويصفو ويصبر فيه مشبه من حسن ،
هنا عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعود مثلها ، فإنه ليس ممن يكون بهه هيكلأ
لها ، ومتى عاد حط ، وربما حن ، وربما مات ، قال فلان كنت ممن يصلح أن يكون
لهم هيكلأ لكنت فوق عبد الله بن هلال ، قل الأعراب وربما ركب جمع كثير ،
ورأيا حيام وقبأ وابأ ثم فقد بهم من ساعت ، ولعوام تروي أن بن مسعود ،
رصى الله عنه ، رأى رجلاً من الرط ، فقرب هؤلاء أشبه من رأيت بالحن ليلة
الحن ، قال : وقد روي عنه خلاف ذلك ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿رويه كتاب رجال
من الأنس يعودون بر حال من الحن فردهم رهقاً﴾ ، ولم يهلك الناس كلنوبل ،
ومما يدل على ما قلنا قول أبي الحزم حيث يقول :

— بحيث تستر مع الحن العول —

«فأخرج الحسن من العول مدي سب به من الحن ، وهكذا عادتهم أن يجرحوا
الشيء من الحمرة بعد أن دخل ذلك الشيء في الحمرة فيظهر لأمر خاص ، وفي

(١) الحيوان ، ج ٤ ، صفحة ١٨٥ ، ح ٣ ، صفحة ٧٥

مُزراً لم يهبه أحد منهم ورد، راد لله عز وجل أن يسيء في أحد شيء من الحيوان. هياً بذلك سباً كما أنه أرد أن يفصر عسره ويحيي يومه هباً به سباً، فتعالى الله علواً كبيراً⁽¹⁾.

من الحرفات التي شاعت عهداً ولا يزال بعضها شائعةً لأول يوم وآخر يوم من لشهور القمرية أثر على اندماغ والدم والحاصلات لمرعيه، وأن الخنافس تحلب الررق فلا يسعي القصد، عيها، وأد كبر الأدبين دليل على طول الحياة⁽²⁾. وأن الشيطان لا يدحس شيئاً فيه ديث أبيض عرقه أحمر⁽³⁾، وأن من يأكل من لحم النهر لا يفعل فيه لسحر، وأن الكمأة تنقى في بطن الأرض حتى تمطر السماء فتتحول إد دة ثعالباً⁽⁴⁾، وأن ثمة حة تعرف باندساس بوب ولا تبيض، وأن السمرة لا تولد حرواً إلا مطوقاً دفعي⁽⁵⁾، وأن الحة تعش أكثر من السر بل هي لا تموت أبداً بالرغم منها لأن لشيطان يسكنها أو لم يحترق بلبس آدم متسلاً إحدى لأفاعي؟ وأن في قعر ببي عسر حية تصطاد الطيور يشكن عريب. عندما تشتد الهاجرة تدحس دسها في الأرض وترفعها كالعمود فتحد عليه الطيور التعب فتبتلعها دون أن تشي، وهذا يشق الحاحط، من قبل الصدر طبعاً، على جهاله ديث الصيراء ي لا يحير بقصرته بين الحبار والحسب بقصر ما يعجب بصير الحية على الحرارة ودهائها في حجاج العير

ولا يعصي صاحبا عن العفاء والعزل ويحوج وماحوج فحصر كل منها بلدعة ويمضي كان قصده أن يثير سحرية الدس من هذه سحافات أمداً مه بأنهم يرعوب، لا سيما وأنها قد تؤثر في معتقدتهم الدينية فهذه صلابتها ولكم دفع بقمة في حمته عير مفسر بن مسعودين اشري الجرارات عير الآهين

(1) الحيوان، ج 3، صفحة 106

(2) الحيوان، ج 6، صفحة 07.

(3) الخيزران، ج 2، صفحة 259

(4) الحيوان، ج 4، صفحة 22

5 الحيوان، ج 4، صفحة 54

للعواقب السيئة التي تحدثها في نفوس العامة الأبرياء

ودفاع عن المفسرين وعن الأحاديث المزعومة التي حاول الملاحظ عظيمها،
أبى أن يقتية يرد عليه بشدة راعماً أنه يستهزئ من الحديث استهزاء لا يحق
على أهل العلم كذكره «كند، الخوت»⁽¹⁾ و«قرن الشيطان»⁽²⁾ و«الحجر الأسود»⁽³⁾
و«دوس الهدهد أمه في رأسه»⁽⁴⁾

وذهاباً من هذه الأمثلة يحاول ابن قتيبة أن يبال من استقامة الملاحظ في توجيهه
الديني ويسب إليه سوء النية والتعرض. إلا إن ابن قتيبة في ذكره ما ذكر قد دس
بعضه بغيره، لأن الأحاديث المزعومة التي انتقلها أبو عثمان باررة السجامة،
بحد ذاتها، ولا تستند إلى الحقيقة التاريخية بصفة، فهي تقول واحتلاق وروايات
هوى

ولا أحال الملاحظ قام بهذا النقد إلا سقذ لأحاديث انصحيحه التي حشي
أن تصح في عمرة المخرجات واستاداً إلى المطلق بد كل حديث مشوه وراح
بفسر المعنى المحاري في الأحاديث الثابتة وبعض النصوص المفهومة⁽⁵⁾، فهو في
تفسير الآية القائنة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ﴾، طلعها كأنه رؤوس
الشياطين يقول.

«وليس أ. لاس رأوا شيطاناً قط على صورة، ولكن لما كان الله قد جعل
في صدى جميع الأسم استقبح جميع صور الشياطين، واستسمحه وكراهته،

(1) يرى أن كند الخوت هو أول صدام يقدم لأهل الحجة لأن الخوت يحمل الثور حامل لأرض
(2) يرى بعضهم أن الشمس تشرق من بين قري شيطان ويرورن حديثاً يهوى عن نصالة عند الشروق
أيضاً لهذا المزمع

(3) يرى أن العباس بن عبد المظفر قال: الحجر الأسود من الجنة وأنه كان أشد بياضاً من
الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك، فقال الجاهل متعديراً إن كان المشركون قد سودوه فما
كان يجب على المسلمين حين أسلموا أن يبصروه

(4) يرى عموم أن الهدهد بن الريح لأنه دوس أمه في رأسه ومن القعدة في رأسه إلا ثوابه على بزه

(5) الحيوان، ج 6، صفحة 96، و صفحة 47، روح، صفحة 166

وأحرى على السنة جميعهم صرب المثل في ذلك، رجع بالأيحاش والتفسير، وبالإحافة والتفريع إلى ما قد جعله الله في صواع الأويين والآحريين، وعند جميع الأمم، عني خلاف طبائع جميع الأمم، وهذا التأويل أشبه من قول من رعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات يست باليعس^(١)

في تأويله وفي تفسيره، كما في بقده السحافات المسوية إلى الأحاديث، حرر الجاحظ الإسلام من عبث الأساطير والخرافات التي يلحقها السدح من الناس بكل دين فكان فصل الجاحظة من هذا القفل حريلاً.

الشعوب المختلفة

كان العراق مركز الإمبراطورية الإسلامية عهد العباسيين ومحور النشاط الفكري والتجاري في العالم لذا اجتذب إليه شعوباً مختلفة الأصل، منها ما ألف مجتمعات شبه مملعة عني دانه، ومنها ما امتزج بمجموعه الشعب وفي كلا الحالتين بقيت لهذه الشعوب خصائص وعادات ما حفيت عن نظر الجاحظ الفصولي فحال فيها على هواءه، وقد توقف خصوصاً عند الموالي من فرس وترك ورواح ويونان وأحاش وهود وبوبيين.

الأتراك

حشي الخلفاء العباسيون نحو انعود الفارسي المصرد إد راوا فيه حضراً عني استقرار ولايهم، فركوا إلى الأتراك، وقد وحدوهم أشد إحلاصاً لهم، وكأوا يجمعون هؤلاء عادة من على أسواق بغداد حيث قدمت بهم الحروب من أواسط آسية.

فهي ولاية المأمون كان نهر من العبيد لأتراك^(٢) في حمصة القدة واردة عددهم ونوطد سبطهم في عهد الخليفة المعتصم لدي عهد إليهم عمراكر حساسة

(١) الحيون، ج 4، صفحة 13

(٢) أبرهم اعشون

في الجيش وفي الإدارة.

وقد أظهر الأتراك من الولاء والابصاط ما حسبهم إلى نفوس الولاة إلا أنهم ما أدركوا أهميتهم حتى جمع بهم انطموح وانتهى بهم الأمر إلى التحكم بشؤون السلطة ومرص رادتهم في تعيين الخلفاء ويذكر المؤرخون أن لقائدين التركيين واصف وإيتاح قد بعتا المتوكل حبيفة بعد موت أخيه الواثق.

أعجب الخاطب بدوره بهذا الشعب الحريء المنصط، أول الأمر، فوضع رسالة عنه عنوانها «مناقب لترك» أظري فيها صفاتهم العسكرية محدولاً أن يمهّد لاعبرهم كركيرة ثالثة للخلافة مع العرب والخراسانيين وكانت حجته لأولى أن الأتراك يحرصون الاحترام بحجوبهم ووفائهم بقدر ما يحرصه الفرس بموهميتهم الإدارية وثقافتهم ودوقهم الأدبي والفني، وقد ذهب في مدحه الأتراك إلى أبعد من ذلك ففصلهم على الخوارج والخراسانيين إذ قال: للبحارجي عيب في مستدير الحرب وللمحراسبي عيب في مستقبل الحرب. فعيب الخراسانية أن لها حولة عند أول الالتقاء ثم تنهرم. أما الخوارج فإن ولوا فلا كركهم بعد فرب يسما التركي هو الراعي والسائس والرائص والحاس ولأن «يغال الكفاف عصاً أحب إليه من أن يغال الملك عمواً».

الربوح

كان يفهم الخاطب بالربوح الحس لأسود عمومياً (بمعناه اليهود) من عدا سكان القسم الشمالي، أو الشاطئ الشرقي، من المناطق الإفريقية التي يقطبها ربح اعشقوا الإسلام

كانت انقواوس التي تردد إلى هذه السدان وإلى الشرق الأقصى تعرد بعدد كبير من العبيد في أواخر القرن الهجري الأول وكان هؤلاء، على حد قول الطبري، يستخدمون في الحفر أو في خدمة العائلات الميسورة

أثار وضع هؤلاء الناس شفقة أبي عثمان، (لكأنه ذكر صبه الرحي) فدفع

عنه بدون تحفظ وفصّته على البصر في رسالته «فجر السودان على انصار». وقال في محل الرد على حصومهم أن الله ما حلفهم سوداً لتحقيرهم. وما لو بهم إلا نتيحة حتميه لملاح بلادهم الحارة. وأي عيب في ذلك بعد، أليست حذقة الإنسان أعز ما لديه مع أنها سوداء!..

غير أن للجاحظ رأياً آخر في أهل ربحار الذين كانوا يقيمون مع الرط في البطائح بين النصرة وواسط، لأنهم كانوا يبدون له أحمق البشر وأقدهم بصيرة واهتماماً بعندهم^(١)، ولكنه كان يصدد سائهم أشد ساهلاً لأنهن جميلات النور، حسات الصوت، مقصدهن ودرعات في الطيح^(٢)

الشعوب شتى

وعرف الملاحظ سائر الشعوب في بغداد فأورد عنها تفاصيل مبيدة للتاريخ ولدت بفتته فنه. الخصبان الذين كانوا يقدون من الحنسة وبلاد النوبة أو السودان فيعملون كحرّاس للحريم أو كخدم. وهو إذ يصف حصائصهم وطريفة حياتهم وشمف برعاتهم لا يتوانى عن الإسفاف على أفعالهم أمام النساء.

ويقول الملاحظ عن البيرطيين أنهم أبجل شعوب المعمور فيس في لغتهم كلمة واحدة تعتر عن الكرم، وعن الألباط أن لهم وحوهاً تشبه وحوه القرو^(٣)

حتى الأطعمة المحتفمة التي كانت تؤثرها هذه الشعوب تحدث الملاحظ عنها فروى أن البيرطيين يأكلون المحشي والمعالى، والفرس يميلون إلى الطعام السارد الحمو، أما البدو فيحبون الدس والحراد والكمأة والتمور^(٤).

(١) البهلاء.

(٢) اليهود، ج ١، صفحة ١٠٦

(٣) اليهود، صفحة ٧٣

(٤) اليهود، ج ٣، صفحة ٤٣٤

أثر البيئة

أدى لتحقيق العدمي بالملاحظ إلى اعسارات قيمة حول أثر البيئة في الشعوب^(١). وفي هذا يستند إلى قول بعضهم أنه إذا فسد الهواء في ناحية من المواحي فسد الماء وفسدت لثمة فعمل ذلك في طباع السكان على الأيام، «كما عمل ذلك في طباع لريح، وطباع بلاد انصقالية، وطباع بلاد يأحوج ومأحوج، وقد رأيت العرب وكانوا أعرباً حين برلوا حراساً، اسلحوا من جميع تلك المعاني، ونرى طباع بلاد الترك كيف تطيع الليل والدواب وجميع ما شبههم، من سبع وبهيمة، على طبائعهم، ونرى حراء القبول والرياحين ودبدبها حصراً، وتراها في غير الحصرة على غير ذلك، ونرى القمل في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء وفي لون الحمل الأوراق ورقاء، فإذا كانت في رأس الحصيب بالحمرة ترها حمراء، فإن حصل حصه صار فيها شكلة من بيض وحمرة، وقد يرى حرة بني سيم، وما انتمت عنه من إسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة، فتراه كلها سوداء، وقد حثرت من لا يحصى من الناس أنهم قد دركوا رحالاً من ببط يسار، ولهم أدب إلا نكر كأدب التماسيح ولأسد والبقر والحيل، وإلا كأدب السلاحف والخردان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأدب، وربما ربا الملاح اسطفي في بعض الجعفرات، على وجه شبه القرد، وربما رأينا الرجل من المغرب، فلا نجد فيه وبين المسح إلا القيس، وقد يجور أب يصادف ذلك الهواء الفاسد، والماء الحثيث، ولثمة الردية، ناساً في صفة هؤلاء المعربين والأساط، ويكوبون حثلاً، فلا يترحلون صبة تمسكهم وأوصدهم ولا يتقنون، فإذا طال دبت عيهم راد في تلك الشعور، وفي تلك الأدب، وفي تلك الألوان اشقر، وفي تلك الصور ماسية للقرد».

هذه الاعتبارات عيها أحد بها عدم الاحتماح الحديث استناداً لطريات

(١) الحيوان، ج ٤، صفحة ٢٤

هيمويت تن . لكن أحده بها لم يكن مطفءاً ، كما شاءه الخاط و شاءه تين من بعده ، فأبو عثمان يقرر ذهباً من اعتبار ته هذه أن البيئة تكثف الناس ، إن ساعدتها العناية الإلهية ، وتصور شخصياتهم وخصائصهم وعاداتهم⁽¹⁾ وخصي بالنالي إلى تصنيف الشعوب فدت فدت بالنسبة إلى بيئاتهم وبعض عاداتهم وخصائصهم انهمية أو القمية . فإذ العرب قد عمدو إلى الشعر لحفظ ذكرياتهم ومآثرهم فيما فضل الفرس القلاع والحصون والأصرحة وهد انصيون بيرعون في الحرف ، واليونان في الفلسفة والآداب ، والفرس الساسانيون في الحكم ، والآراك في الحرب . فلذا لم يشهر اليونان في الحارة ولا في الحرف ولا في الملاحة ، فيما اشتهر الصيون بالصياغة والنحت على الخشب والحياكة والسبح

أما العرب فليسوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ، ولا مرر عيين ، بل أصحاب فراسة وقد لمعوا في لآداب و لعه والمنطق والسحيم .

إن هذه الآراء ، على بدايتها ، تم عن رعه في البحث الاجتماعي عند العرب منذ ذلك العهد أو لا يسبح من هذا أن الخاط مهذ انسيل لابن خلدون ؟

* * *

المرأة واحية المدنية

لم يكن لحياء العائلة دور بارر عند العرب في القرون الهجري الثاني و مرد ذلك إلى طريقة حياتهم بقدر م مرده إلى وضع المرأة بوجه عام كانت الطبقات الأرستقراطية والرجولية تصرف أوقات الفراغ بطلب الملذات فيما كانت الطبقة الفقيرة تكاد لا تعرف لفراغ معنى أما الأتقياء فكان لفرائص دينهم ما يشعلهم عن الاهتمام بأي شي ، آخر عند الانتهاء من أعمالهم

وكن الخاط فيل الإيمان بمطلق المرأة لده يسب إليها وإلى أشباهها من

(1) الحيوان ، ج4 ، صفحة 70 71 و ج5 ، صفحة 35-36 و ج5 ، صفحة 326

امر حال كل الحكايات المهمة ، لكنه مع هذا كان يراها مساوية للرجل فلا يصح بالدفاع عنها ناسياً الضعف إلى من لا يستطيع أن يثبت حقوق الآباء إلا بإسكار حقوق الامهات ودعماً لوجهة نظره وصح رسالة «في الناس والرجال» ودرس خصائص كل جنس والمجالات التي يبرز فيها الواحد الآخر

وإذا يعترف أبو عثمان بالتعاون الاجتماعي البارز بين وصفي الرجل والمرأة في عصره ، يعترف أيضاً بتحس ملوس في وصع المرأة باللبسة ما كانت عليه وذلك بمفصل الإسلام .

ويهي به درس واقع المرأة في عصره إلى استهجان حجب النساء وإلى التكرار بتشقيف المرأة ورفع مستواها وتحريرها من استداد الرجل

أما الحبة المرببة فكانت مردهرة باللبسة إلى المخطوطين نظراً لتدفق الخير على أسواق بغداد والبصرة . فهي رسالة «النصر في سجادة» مسبوقة إلى الخياط عرص واقف لحرارة التحارية في ذلك العهد وطرق البديع التي كان يعتمد عليها أبناء العمة في حياتهم .

وبمفصل احتلاط العرب بالفرس تطوّر الطبع اندي كان بسيطاً بدائياً عند العرب إلى فن له مقوماته وأساليبه . فكانت تؤدب المآدب وتو لم الولائم في الحفلات الخاصة والعامة على أسمى ما عرفه الأكاسرة والمقرّبون منهم .

ويروي لنا أبو عثمان بالتفصيل المآكل والمشارب وخصائص عرق الطعام حتى لحال أبا يعيش في حوزها المآت .

ويذكر أيضاً كل صروب الطعام المألوفة في ذلك العصر وأنواع الدعوات إليه والمناسبات التي تتيحها ومنها العرس ، أي وليمة القرائ ، والحرس وهو الصدم الذي يتّحد صبيحة الولادة للرجال والنساء ، ولأعدي وهو طعام الخنا والكيرة ، أي طعام النساء . كان الرجل يطعم من يسي له ، وإذا فرغ من يائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم^١ ، ثم يذكر القبيعة وهي ما ينحر من الابل ، والعقيقة

(١) البحلاء ، صفحة 248 .

وهي دعوة على لحم الكباش .

والدعاء إلى هذه الأصناف من الطعام كان من المدموم ومنه الممدوح . وفي هذا يقول الجاحظ^(١) : والمدموم النقرى والممدوح الجملي . وذلك إن صاحب المادية وولي الدعوة إذا جاء رسوله ، والقوم في أحويتهم وأنديتهم ، فقال حيوا إلى طعام فلان ، فجعلهم حصاة واحدة ، وهي الحصاة ، فذلك هو الممدود وإذا النقرى فقال : تم أنت يا فلان ، وقم أنت يا فلان ، فدعا بعضاً وبرك بعضاً ، فقد النقرى .

أما الطعام المدموم فكان على صريين أحدهما طعام المجوع والخصمات والضرائك والسياريات^(٢) واللحم والحساء والفقراء والضعفاء من ذلك الفئ^(٣) والدعاع والهيد ، القرمة والقرمة والعسوم ومقع البرم ، القصيد والقد^(٤) والحيت أما اللفظ فإنه وإن كان شرباً كريهاً فيس يدخل في هذا الباب ، وكذلك الممدوح أما اللفظ فإنه عصارة الفرس إذا أصابهم العطش في الماور ، وأما الممدوح فإنه إذا سبغ العطش منهم لمجهود يحرقوا لابس وينفوا ألسنها بالحما كميلاً يصعب من دماها شيء فإذا برد الدم صربوه بأيديهم ، وحدثوه بعيداً جدياً حتى يقطع ، فيعزل ماؤه من نفسه ، كما يحلص برده بالخص ، وليس بالأقحة ، فيصافون ذلك الماء ويتبعون به ، حتى يحرقوه من منفرة

ويعصي الجاحظ في شرح بحلف الطعام من الهريسة والقرسية ، إلى الثريدة ، إلى المحنية إلى المدلوح ، ويسر خصائص كل منها وفوائده

وبعد الطعام وصروبه يعدد أبو عثمان الأدوات المرلية ومصادرها وكيفيات

(١) البخلاء ، صفحة 248

(٢) المجوع الواحد جماعة الحطمت الواحد حطمه ، السه تشديده الصرائك الواحد

طريق الفقير اليأس السياريت . الواحد صبروت المخاض الممل

(٣) لميت يختبر حبه ويؤكد في الخلد

(٤) الدعاع حه سوداء ياكبه فقره الدية الهيد الحظال القرمة محاته الفروع والأظلاف

القرمة : البقيق المحتفظ بالشر البرم . ثمر شجر العصاة

استعمالها وإذا قروا الهائم تستخدم كمشاحب ليوم . وإذا الإمعاء تصع أو تدرأ ،
والعظام تذوب لتستعمل شحماً لمسارح .

ولا يعمل الخياط عن ذكر أدوات التريين عند النساء والرجال⁽¹⁾ ، ولا وسائل
الترفيه ومنها لرد وتربية الحمام ويشير إلى العادات المنوعة على الموائد ، وإلى
الألبسة التي كانت ترتديها طبقات الشعب المختلفة ، وإلى فرش القصور والدور ،
وإلى البياض الاجتماعية وما يليها من عرف وتقليد⁽²⁾

الحركة الأدبية

ليس من السهل الصريق بين الحياة الأدبية والحياة السياسية الدسية عندما يكون
تمسير الكتب المقدسة الدافع الأول إلى التقبيل ، للعوى والبحث في الشعر القديم ،
وعندما يستوحى الشعراء مظاهر لششاط السياسي في مديحهم وفجرهم وحتى
في عزلهم أحياناً . إلا أنه كانت تقوم مناظرات لعوية وأسواق أدبية مستقنة في
المربد مثلاً أو في لبلاط . وكثيراً ما اشترك الخياط فيها . وكان يأخذ على المثقفين
في عصره قبه انصرافهم إلى الفكر رعم بهيو الخو الحر الملائم لاردهاره ، كما
يأخذ عندهم انصرافهم إلى شؤون البعة بد حشواً ذمهم قواعد وحوارات صرفة
وبحوبة حتى لم جد ثمة محل لعبادة بالقصدا مفيدة⁽³⁾ . وقد وجه نقداً لادعاً في
هد اناب إلى معنمه الأحسن فعاب عليه عموصه المقصود⁽⁴⁾

إلا أن أبا عثم ن أعصى عن نقد الانصراف إلى جمع اشعر القديم لأن ضرورة
الرد على لشعوبية اقتضت هد العمل ولم يتوان هو نفسه عن القيام بهذه المهمة
في كتابه «البيان والتبيين» وقد ذكر في هد الكتب كما في غيره كـ «الاحلااء»

(1) الحيوانات ، ج 1 ، صفحة 37 و 97

(2) البيان ، ج 3 ، صفحة 63 و 66

(3) على هامش الكامل للمبرد ، ج 1 ، صفحة 26-27 .

(4) الحيوانات ، ج 1 ، صفحة 45

و«الحيوان» شعرٌ رَوَّاهُ، عني دمة لأصمعي وكنم أظهر إشاره لشعر ساهبي على الشعر المعاصر^(١).

وأورد الخياط، في حديثه عن الأدب والأدباء في عهده، تفاصيل مفيدة عن طريقة كلامهم، وقد بعضهم نُحِرَ كلُّ نظام مثلاً^(٢)، وبعضهم بحس المحوِّد وكن يري في أبي عبيدة الخارحي، عني رعم اختلافهم لسياسي، انعام لأمثل الذي يسم بشؤون المعرفة كافة. أما بشر بن برد وبنان اللاحقي فما حصنهم بأي مديح، بن رأى فيهم الرندة المجسدة وأما بن نواس فلم يذكره بحر ولا يشر، وليس لدينا ما يفسر هذه الالامبالاه

وليسحج شأنه في كتب الخياط وقد كان رائجاً في ذلك العهد وكتب في تأييده أنه وسببة فعانة لحفظ المعرفة لأن موسيقى الفواهي تساعد على الاستظهار وهكذا يرب الخياط في هذا العرض الحيلقي الدقيق شريطاً حصياً بالصورة عن الحياة في عصره فلولاه لما تكملت الفكرة التاريخية عن ذلك المجتمع ولما توضع عدد كبير من دقائقه ودقائقه.

(١) الحيوان، ج ١، صفحة ٣٧

(٢) الحيوان، ج ١، صفحة ٣٦ والبيان، ج ١، صفحة ٣٧،

قيمة شهادة الجاحظ على

محتمم عصره

الآن وقد استعرضنا أهم الحقول التي تناولها الجاحظ بنفسه وتصويره، يرتسم أمام أذهاننا السؤال الأساسي ما عائدة اليوم من شهادة الجاحظ على مجتمع بعد نقص ألف عام عيناها؟ هل لها قيمة حقيقية في الحقول الأدبية والتاريخية والمدنية؟

القيمة الأدبية

كثر عدد المؤرخين والكتاب العرب الذين درسوا ونقدوا المجتمع العربي في لعصر العباسي وبين هؤلاء من قرأ معلومات أكثر مما قرأ الجاحظ (مسعودي والأصمغاني مثلاً)، إلا أن أبا عثمان بقي مع هذا، في نظر النقد، شاهد عصره الأول. فما هو السبب الأساسي؟⁽¹⁾

بدو أن مرة الجاحظ الأولى هي إحياء موضوع وترسيخه في الأذهان فهو لا يسرد الوقائع سرداً مملاً جافاً، على عرار أكثر المؤرخين، بل يحب أوصافه بصفة حبة نجعلها تحكي لنا بوضوح وقد أسمع وسائل شتى لبوع عاينها ستناولها تفصيلاً:

وصف الأشخاص

ليست مدكة للملاحظة، على أهميتها، هي التي جعلت لنقد الجاحظ قيمته المبررة، بقدر ما هي طريقة عرض أشخاصه وبعثهم أحياء، لقد تعد إلى نفسية

(1) البحلاء، صفحة 96

موصوفه ودرس الصلة بينها وبين الحركات الخارجية والملاصق والامعالات من
كسمة عصبية ، إلى إشارة خاطئة ، إلى بصرة عابرة فهو إذ يصف بـ «الحين الجشع»
بحالنا شاهده أمم بهممة وتكالبه : «كار إذا أكل ذهب عفيه ، وحجصت عيه ،
وسكر وسدر وابهر ، وترتد وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر فمما رأيت
ما يعبريه ، وما يعري الطعام منه ، صرت لا أدل له إلا وبحر يأكل التمر والخور
والباقي . ولم يفحأي قط وأن آكر تمراً إلا استقه سقاءً وحساه حسواً ، وردابه
ردواً ، ولا وحده كبيراً إلا تناول القطعة كحمومة الثور ، ثم بأحد بحصيتها ،
ويقتها من الأرض ، ثم لا يرل بهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وحفصاً ، حتى يأنى
عيبها جميعاً ثم لا يقع عصبه إلا على الأصاف والاثلاث ولم يفصل ثمرة قط
من ثمرة وكاب صاحب حمل ولم يكن يرصى بالتهريق . ولا رمى بواءه قط
ولا برع فمعاً ، ولا نهي عنه قشراً ، ولا فتشه محادة السوس والدود ثم ما رأينه
قط إلا وكأنه طائب ثار ، وشحشحن صاحب طائله وكأنه عشيق معتم ، أو
جائع مقرور»⁽¹⁾

إنه لا يدرس أشخاصه في المطلق ، بل في أوضاع معينة مفصلة يكشف عن
أعمق قههم شكك بسع لقد عرف كيف يرفع القناع عن وجوههم ليطهرهم عن
حقيقته ويحملنا على مشاطرة رأيه فيهم فتميل إلى بعضهم ونكره غيرهم
واللاحظ ، بعد ، يطر إلى وجه واحد من وجوه أشخاصه . وهذا سر نفوقه
فالحيل عدده ليس بحياً فقط ، لكن السجل هو العامل الرئيسي الذي يوجه حياته
حتى ليصح تحسيداً لسجل وتمحي فيه سائر الخصائص .

أم إنشاؤه فهو سندس على متنه سندس ، بعيد عن التصنع ولعموص على
وجه الإحسان⁽²⁾ . واللاحظ ، من هذا لقييل ، أقل كتاب العرب اهتماماً بالترقيق
اللفظي والسميق الباني قال بديع الزمان في وصف كلامه : «بعيد الإشارات ،

(1) البخلاء ، صفحة 96

(2) يوجد عليه بعض العموص أحياناً في استعمال سمائر العائب مبتسج لمصير على الفارسي

قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، مقدد لعربان الكلام يستعمله ، يعود من معاصره يهمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ؟ أو لفظة غير مصبوعة ؟»

ك . دأبه أن يعبر بوضوح وغفوية بلغة مربة عبة بالفرديات والمرادفات وكان يعنى عناية خاصة باختيار اللفظة التي تستوفي التعبير عن المعنى المقصود ، فلا يشتكف عن استعمال لتعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصاً في سرد الحوار حرصاً منه على إبعاء صورته تامة عن موصوفاته في أحوائها المحتملة .

«ومتى سمعت ، حفظك الله ، بادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأب تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج الفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تسحق في إعرابها ، وأخرحها مخرج كلام المولدين واللدنيين ، خرجت من تنك الحكاية وعيدك فصل كبير ، وكذلك إذا سمعت بادرة من بوارد العوام ، ومُلحة من ملح الحشوة والعظام ، فإياك . وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخيرها بمطهر حسناً ، أو تحس لها من حيث مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتع بها ويخرجها من صورتها ، ومن اندي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها»⁽¹⁾

أما حمته فهي على انعال وحيرة أيقنة . وهي قوبة الحث حتى عندما تكون ثقيلة التركيب

هذا الأسلوب انسليم جعل للحذو أتباعاً كثيرين طوَّروا لعربية من بعده وليتوها وحعلوها أشد ملاءمة للتعبير عن مقتضيات العصر .

وقد يكون - أهم ما يؤخذ على احاحط انتقاله من موصوع إلى موصوع حتى لصيغ القرئ ويعيب عنه أساس البحث فهو مثلاً كان لا يتورع عن مناقشة فكرة فلسفية دقيقة رأساً بعد سرد بادره أو وصف حوار ، وكأنه في حديث لا عبة له وهو إلى هد فلما توحى الندرس الأسبوبي المستند لأي من المواضيع ، بل كان حسبه أن يعالج كل مسألة كيفما اتفق له

(1) البيان والتبيين ، ج 1 ، صفحة 81 .

ضحك الجاحظ

كان أبو عثمان معظوراً على التهكم كان يحب السكينة للسكينة، يقولها حتى لو انقبت عليه . وكثيراً ما كان يقول أن في الحد إذا استمر إرهافاً للذهن وصرفاً عن الموضوع . والكذب أيضاً كان نوعها حتى ولو عدلت شتوتاً خطيرة ، يجب أن لا تحبو من بهزل والتسمية نفعها عن القدرى وعوناً على حصر هتمامه .

«وان كما قد أملى لك بالحد ، ربالاحتجاجات النصيحة والبروكة ، لتكثر الحواطر ، وتشهد العقول ، فإن سسشتك ببعض البطالات ، ويذكر العمل الطريفة ، والاحتجاجات العربية ، قرب شعر يلعب بقرط عبوة صاحبه من السرور وانصحتك والاسطراف ما لا يلعبه حشد آخر الوادر ، وجمع المعاني ، وأنا استظرف أمرين استظرفاً شديداً . أحدهما اسماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر ، احتجاج متارعين في الكلام وهما لا يحسبان منه شيئاً ، وبهما يثير من عريب الطيب . بصحت كل ثكلان وإن تشدد ، وكل عصيان وإن حرقه لهيب العصب ، ولو إن ذلك لا يحل لك في باب اللهو والصحت والسرور وسطالة والتشاعل ما يجوز في كل فن ، وسدكر من هذا الشكل عدلاً ، وبورد علبك من احتجاجات الأعياء حججاً ، وإن كنت ممن يسعمل الملاة ، وعجل إليه السامة ، كان هذا الباب شيطاً لقلبك ، وجماماً لقوتك ، ولتبدى النظر في باب الخصم ، وقد ذهب عنك الثكلان ، وحدث النشاط ، وإن كنت صاحب عزم وحد . وكنت ممرباً موقحاً ، وكنت إنك تفكير وتغير ، ودراسة كتب ، وحلف ستي ، وكنت ذلك عادة لك ، لم يصرك مكانه من الكتاب ، وبحظه إن ما هو أولى بك ، وعنى أي قد عرمت ، والله لموفق ، بي أوسع هذا الكتاب وأفضل أبو به سواد من صروب الشعر ، وصروب الأحاديث ، ليحرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع من الأصوات المطرقة ، والأعني الحسة ، والأوتار الفصيحة ، بإطلت ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحه التي إذا طلت أورثت العفة ، وإذا كنت الأوائل قد سارت في صغار

الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير ما حال وكثر اصلح ، وما عاتبا من ذلك كله إلا أن تسفيلوا حيراً⁽¹⁾ .

وفي سبيل الدفاع عن هذا المبدأ في الصحت لتثويق ، يستعين المحاط بالكتب المقدسة وبالطلب وبالعلماء ولعن تشاومه بالحياة جمع بصرف إلى الصحت والتبشير به رغبة في الدهول عن واقعه المرير .

القيمة التاريخية

هل شهادة المحاط على مجتمع غير القيمة الأدبية " هل لها قيمة تاريخية ما ؟

إذ كان لتاريخ بعث الماصي بكامنه ، أي تصويراً حياً ملوئاً كمالاً ، أقصى المستطع ، وموحياً على الأحص يُعيد إلى دهر الفارئ الرمن الماصي ، فلا شك ان لشهادة المحاط شأنها لا سيما بالسنة إلى مؤرخي الإسلام . وقد أفسح به المشرق سواحبه⁽²⁾ مكاناً بين مؤرخين مبرراً ذلك بقوله إن دقة ملاحظاته وحدة أوصافه تجعله شاهداً محرم الرأي على مجتمع عصره

والواقع إن المحاط شاهد محترم الرأي حقاً إذا سئما بأن الاحترام يقوم على دعمي العزم والإخلاص وهما لا بد من التمييز بين قسمين من شحته . انقسم الموضوعي الذي يسرد فيه الوقائع التي شهداها ، على ما هي ، وانقسم الذاتي الذي يعلب عليه النقد .

فالمحاط كشاهد لا تُعورهُ انكفاء ولا الموضوعية ، فقد مكته أوصاعه الخاصة من أن يرى ويدون ويستخلص . وكان له من دوقه ، تسليم ما حثه الخطأ في غالب الأحيان

تساول أبو عثمان الأشياء التي رآها بأمر عيه والناس الذين عرفهم عن كتب .

(1) الحيوان ، ج3 ، صفحة 2

(2) مؤرخو الإسلام

ولما أنه كان دقيق الملاحظة ، يعنى أهميه عني دهائن الأمور ، فقد استطاع أن يمد
 بأنظاره الحادة من خلال كل وجه ، وكل حركة ، ليُشبع فضوله أولاً ثم يسجل
 ملاحظاته من بعد . وهكذا جعلت أوصافه بالتفاصيل الدقيقة بالحياة والتعقيدات
 الشخصية المفيدة ، والانطباعات القوية المدلول ، وهي تشكل سجلاً عياً مؤثراً
 لحياة المجتمع العاسي فعلم بمصده كيف كانوا يعيشون في بغداد ولبصرة ، وما
 كانت موضوع أحاديثهم ، وما كانت مآكلهم ومشربهم وملابسهم ، وكيف
 كانت أوضاع كل حرب وكل فرقة وكل شعب من الشعوب . ويريد في قيمة هذا
 السجل الحي أنه عموماً يحبو من تعقيد ولطالما جهد الملاحظ أن يحسن ويعمق
 معطيات الاحتمار الندية ليتوصل منها إلى اعتبارات عامة تهتم علم الاجتماع
 وكان له من حربة التصرف ما جعله يتحلى العرف والتقليد فيصبح أساساً نقدية
 جديدة .

الناقد

بين أثر المخطط ما أوحىه عوامل ذاتية حاول منها أن يدافع عن رأي خاص
 وبما عن موقف سياسي معين أو أن يحمل عني حصوم وأفكار معدية . فهو في
 مثل هذه الحالات لا يبين الوقائع كما هي ، بل بالنسبة إلى تأويله الخاص وعني
 صوء برعائه ندية أو السياسية أو العاطفية . ثم يسب إلى الأمويين وعمّالهم كل
 الخرائم والمجذّر والطلاقات ؟ ومن نظر لآ إلى العيوب في الأقبيت الندية
 التي وصفها ؟ .

ثم أية ثقة يمكن أن يوحىها كذب ، كالمخطط ، يعن اليوم ما باركه بالأمس
 حرياً مع برواات طبعه أو مصالحه أم حصل تدره على الإمام عني و منده نرة
 بدات الحمية ؟ ألم يحدد فصل الموالي في رسالة يرهقهم دمًا في غيرها ؟

ب كل هذا يؤيد قول ابن قتيبة الذي سب إليه التقب في الرأي على الدوام .
 ويبقى مع هذا أن هذه الوثائق لو دققها المؤرخ النوعي لاستخرج منها بعض
 الشهاده طراً لندة الملاحظه العجيه لني ما كانت لتفويه

وهالت عقدة أخرى لا بد من تداركها وهي أن الملاحظ كان سئم أحياناً
بعض آراء وأفكار مالوفة بدون أن يناقشها ويعرض أسسها فيستخلص منها أحكاماً
عامة لا تتركز دائماً إلى أسر وعيد.

ولكن مهما يكن من أمر، فإن نقد الملاحظ الاجتماعي يوفر فائدة أكيدة
لمؤرخ لأن صاحبها عرف كيف يعرض الخاصيات الرئيسية التي ميّزت عصره.

القيمة المذهبية

لا بد لقارئ نثر الملاحظ أن يسأل نفسه: بوحى أي مذهب قام هذا المؤلف
بقده الاجتماعي؟

أن يكون صاحب «كتاب الحيوان» قد توحى أولاً إصلاح المجتمع، بذلك
أمر يصعب إثباته. فقد سبق لنا أن رأينا العوامل المختلفة التي أوجت إليه تاحه.
ولكن رغم أنه لم يستهدف الإصلاح للإصلاح فإنه ما كان ليبراً من ثقافته المطلقة
ومن نظرته إلى الكاتب كمرشد واع فمن محمل دراسته للمجتمع التي ترندي
تارة صانع الموضوعية وثارة طابع اسقد الداني، توصح أفكار جماعة متمردة
لها أهميتها.

على هامش اللوحة التي رسمها الملاحظ لمجتمع عصره اتفق له أن تطرق لعدة
معصلات في مجالات شتى من الدين، إلى المجتمع، إلى السياسة، إلى الأخلاق،
إلى العلم... وكثيراً ما انتهى إلى خلاصات حذيرة بالانتميم. وما كانت روح
الدعوة التي انطوت عليها لنحول دون إثارة تفكير القارئ وحمله على توحى
الإصلاح.

مع هذا ما ادعى الملاحظ الفسفة قط على أساس مذهب مُركّز بل كان همه
أن يلاحظ أكثر من أن يمدد ملاحظاته. ولكن، إن أعورده لمذهب المسجّم
المكمل، فما أعورده الاستنتاج والظرات الحكيمة التي قد تؤلف، على نوع
ما، مجموعات مسجمة سحاول درسها.

الإنسان كائن اجتماعي

كان الخاطئ، وهو تسمية مدرسة أرسطو⁽¹⁾، يرى في الإنسان كائناً سياسياً لا ينفصل عن المجتمع، لا معنى له وحده ولا أثر، لاستمرار السبل ولا للدفاع عن حياته أو صيانتها⁽²⁾ فالإنسان لا يصير إلى الحياة الاجتماعية لحاجة مادية ملحة فقط بل أيضاً وخصوصاً في سبيل لتبادل الذهني

كيف رام الخاطئ هذا الإنسان «العالم الأصغر»⁽³⁾، العنصر الأساسي في المجتمع؟ ثلاث خصائص استوفتها في هذا المجال

العقل

من الطبيعي أن يجعل الخاطئ، وهو انشع من المطلق، العقل حكماً في النظر إلى الأمور، فيعرض على محكّه شؤون الدّين والتقاليد والسياسة. لقد وعى وعياً حلياً الساقط البارز بين مستوى الثقافة المطقية الذي يلعبه العقل البشري والمستوى الذي تشبّث به معظم الناس الذين يحزون ورءهم ثقل التقاليد السائدة والخرافات لسحيقة وشجة لوعيه هذا توجه بحمية ومطى وهراء إلى الجمهور لا ليحمّله على سدهذه الاعتقادات العارفة بالجهل وحسب، بل ليعمر بالسحرية كل ما يصدّم العقل ويأباه الذوق السليم ومن هنا كانت ثورته على المشعوذين، مفستريين كانوا أم مجنّمين، وعلى الأساطير والخرافات والحمافات

لقد كان على إيمان بان كل تقدم في بشر أساليب المصق وفهم الدّين على حقيقته يقابله تقدم في ازدهار الفصيلة كبيرة استمرار كل مجتمع وهذا يفسر اندفاعه إلى دحض كل تأكيد عموي إلى تحرير العقل من كل وهم وهوى يؤثر على نطلعه إلى الحق!

(1) فلسفة أرسطو كما كتب بفهم عهد ذلك أي مملوكة بالأدلاطوية المستحدثة

(2) الحيوان، ج 42، صفحة 42

(3) الحيوان، ج 1، صفحة 213

قال المحايط إن الاختبار الحسي يقف عند الظواهر⁽¹⁾ يشهد الواقع ويقف
عنده. والعقل وحده يتميز بين الخير والشر ويوقر النمو لئلا ينشأ الشرير. والعقل
في الإنسان هو الجوهرى والأفصل⁽²⁾ غير أنه معصور بمعطيات الحس ولا بد من
تحريره أولاً وهذا لا بد من العطفة لإثارة تعقّل لدهن، فيكون بالتالي لتحييل
والحس شأنهما في توحه العقل⁽³⁾

الأخلاق

لم يكن المحايط مصوراً اجتماعياً بارعاً فقط بل كان أيضاً مرشداً أخلاقياً.
بيد الأثر فهو أن حمل على المرائين والمستثمرين والחסدين والمكثين وصغار
النفوس ما كانت انتسالية رائده بقدر ما كان الإصلاح عن طريق ردة الفعل⁽⁴⁾.
بيد أنه ما اكتمل بوصف أو يقدم يجري، بل موصى إلى أبعد. موصى بوجه نحو
الأكمل، ويرشد إلى الطرق الفصلية التي تسمى بالكنائس الشريرة نحو تحقيق مثله
الأعلى في الحياة.

إن المحايط، انعم على بوحى مذهبه القائل «بأمر المعروف والنهي عن المنكر»⁽⁵⁾
وضع أكثر من فصل في السبك الحقيقي. وتخصص آراؤه المناقبة بشيء من المحيطة
الاجتماعية ولتمسك بالمصائل التي يفرح بها المسموم ومنها الإحسان والبر
بالوعود والكرم والتعاضد ولو احب الإنسان والاعتدال في طيب اللذة وتسلية
لإرادة على ليهوى وهذه صفات قيمة بتوطيد ركيزة المجتمع الخلقية
وهذا الاعتدال هو سبحة الأثر بالفلسفة المشائية ورعية الحد من الإحلال
الحقيقي المتعشّي، وهو بأسف وطبع أبي عثمان الرّاع إلى تسوية الأمور بالحسنى

(1) الحيوان، ج 2، صفحة 6

(2) التبرع والتدوير على هدمش الكامل بمررد، ج 1، صفحة 43

(3) الحيوان ج 1، صفحة 207

(4) الحيوان ج 1، صفحة 97

(5) أحد أصول المعتزلة الخمسة

من دون اللجوء إلى العنف

والمبادئ الأخلاقية التي تستر الخاطئ في إرشاده اسمها إجمالاً من القرآن الكريم والحديث والسيرة النبوية . وقد كان على يقين بأن الإنسان لن يكون سعيداً إلا إذا سر بهدي صميمه الحي وراقب أعماله بدياره وسمع إلى نصيح المحضين من أصدقائه واعتبر كصاحب غيره⁽¹⁾ .

رأى الخاطئ أن الإنسان لا يشكّل وحده قائمة بذاتها بل هو جزء من كل أكبر ، أنه هر مختصر انكون⁽²⁾ ، فعليه إذن أن يصلح نفسه أولاً لأن الفساد الاجتماعي ليس إلا مجموعة الفساد الفردي ، وعليه أن يحلّ السلام لا في نفسه فقط بل في مجتمعها أيضاً لأنه متصا من معه

هذه الماقيية ، الدببة الإيحاء ، كرر بها أبو عثمان إرصة لرعيه اميتفيريقية وتلية لحاجة عمية تدعم تأكيدات العمل الأولية لخير الإنسان العنوش في المجتمع

المابعية

استوحى الخاطئ ، في بقده لاجتماعي ، اختياره الشحصي بقدر ما استوحى دوقه السليم كان يرى أن انتصرف الأمش هو الذي يؤتم بطسعة والعمل عني غير تعمل . فكل ما يتعد عن الطبيعي ، أو كان صعطاً عني الاخرين ، أو كان كذباً وحباً واحتيالاً ، كان يثيرة فيرفصه

رأى مثلاً أن العرور والخدع والحل والجشع بواقص تحط من قدر الإنسان كإنسان ، فشر عنيها حملة عيفة رمت إلى إصلاح بشري حاري

لتحقيق عابته هذه اعتمد الخاطئ طريقتين محلفتين ، لكهما تنك ملان أولاهما طريقة العير المباشر عن أفكاره بدون مواربة⁽³⁾ ثم طريقة الإيحاء الموجه فهو بد

(1) البحلاء

(2) الخيون ، ج 1 ، صفة 31

(3) في أكثر من رسالة ومقدمة يقدم في الخاطئ إلى السبلات الاجتماعية وأصول اللبنة

بتهكم على المعلمين والأعوان والحلاء والجهل وفي يطري من قيس ردة الفعل
البساطة والكرم والعلم والتواضع واحترام النفس .

المجتمع

إن المجتمع الأمثل ، كما تصوره الحافظ ، يستهدف خير أفراده المشترك
واردها رهم واحترام حريتهم . ولا يتم هذا إلا بالتصامم الشامل بين أعضاء
المجتمع نأمن لاستقرار الضروري في نقطة الانطلاق ، ثم بالسيطة التي توحه ،
كالرأس ، سائر لأعضاء نحو الخير المشترك وتكبح شططهم ، ثم الدبر كظام
أخلاقي يسمي الفصل في مختلف طبقات الشعب ويساعد على تطوير الإنسان
لتحقيق برعائه غير الأرضية⁽¹⁾

أما التصامم فلم يرد فيه أبو عثمان ، على ما جاء به القرآن الكريم والحكمة
أيوانية⁽²⁾ فقد كان على اقتناع تام بأن كل طلامة فردية لا بد أن تسيء إلى
المجتمع كجسم مظم متصامم

أما موضوع السلطة فقد حملة على إبداء آراء فريدة حول الإمامة و ضرورتها
ودورها ومقاصباتها وقد دفعه إليها عدم ثقته بالإنسان اندي اعبره سيئاً بطبيعته ،
أدبياً ، فسد الحق ، لا يفتش إلا عن لدته رعم المطهر التي يُعذب بها غريته⁽³⁾ .
ودفعه إليها أيضاً بطرته الخاصة إلى المجتمع وقد وعاه قائماً على مفترق طريق
بين الخسفة بموضوعة شي يعرضها العقل وبين الروح التي توحى إليه ناموسها .
ولا بد أن تدلي من وسيط للانتقال من فكره الخير الأسمى إلى واجب الفرد لأحسن
تحقيقها وهذا الوسيط هو لإمام الذي يتولى السطة⁽⁴⁾ وقد درت فكرة المعترلة
في جوهرها حول هذا المحور الدقيق .

(1) الحيوان ، ج 2 ، صفحة 116

(2) الحيوان ، ج 1 ، صفحة 42

(3) رسائل ، صفحة 254-256

(4) رسائل ، صفحة 271

لكن اختيار الإمام أثار معصية جديدة لدى أبي عثمان، لأن السيد المطلق الذي يقرص القابول ويوجه الجماعة نحو خيرها الأسمى يجب أن يكون حديراً بالثقة، يتحلى بالفصائل السامية. لقد شعنت هذه المسألة المحاط كما شعلت أفلاطون من قبل إلا أن صاحبها لم يتوقف، كالفيلسوف اليوناني، عند توزيع السلطة بين الرجال الدين، إن اجتماعوا، جمعوا الفصائل المطلوبة، بل اعتبر وحدة السلطة في شخص واحد لا ماص منها لسيق الوحش العام وتحديد التبعات، فاقترح أن يولى السلطة ذلك الذي يبدو من المثل الأعلى أكثر من سواه⁽¹⁾.

ورأى أن مبدأ السلطة التسلسلية الذي يفترض وجود الإمام في رأس الهرم يقوم على فكرة عدم المساواة الطبيعية بين البشر كما عني حاشه الأدي إلى الأعلى بدون صحة العكس⁽²⁾ وهذا المبدأ الذي اتحد أساساً معظم الإقصاع بدأ يتمذهب في القرون الوسطى، حتى قصص على شفه الثاني فكرة المساواة والمصلحة المشتركة بين الأدي ولأعلى، من قيام الثورة الفرنسية

الدين

في حق الدين، كما في سائر حقول النشاط البشري، استرشد المحاط عقبه. فهو ما اعتق مذهب المعتزلة إلا لأنه يحفظ لعقل السليم مرتبة بحسب الإيماء، لأن العصر الثاني لا ينافض لعصر الأول، بل يساعد على إكماله.

هذا التعلق الصريح بالدين مصدره اعتقاد عميق منه بأنه ليس ثمة حقيقة في المعمور إلا وتلاءم وحقيقة التعاليم المترلة من السماء. غير أن هذه التعاليم لا يجوز، في حال من الأحوال، أن تناقض لعقل لأن العقل والوحي يشقان كلاهما عن الله وهما بالتالي مترابطان متكاملان.

(1) عير عن رأيه هذا نوع خاص من رساله حول استحقاق الإمامة وهي رسالة التي كانت، على ما يقال، سبب اتصاله بالمأسون

(2) أوحاه إليه أرسطو

لن تسرب الشئ أحياناً إلى الحاحظ ، فما ذلك قطعاً لمجرد الشك والشكك ، بل سبباً لتيقن ، لأن من يألف الشئ يتعرض للوهن والاضلال⁽¹⁾ . إنه الشئ الأسلوبي بعينه ، شرط كل بحث وصي ، الذي ساور أرسطو من قبل ثم ديكارت وبايكون وغيرهما من بعد هو خنثهم إلى السعي وراء معين اشد وأكمل⁽²⁾ .

كان مفهوم الحاحظ للذئ ، مثل مفهومه لمثلث : قوة محاطة في جو انضباط اجتماعي تتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الدفاع عن المحرومين . إنه ، بجوهره ، مظهر من مظاهر مطلقة الحاحظ برر وجوده نظرنه إلى الإنسان ككائن سيء لا يكبح بهيميه الطبيعية إلا الخوف من العقاب أو لرعية في الثواب⁽³⁾ .

نظرات في علم الاحتمام

لن لم يكن للحاحظ مذهبه الخاص في علم الاحتمام يسهدف إدخال تفسير الظواهر الاجتماعية في نظرة عامة للمعمور فقد كانت له حواطر مستثرة تناولت نفسية الشعوب وخصائصها وأثر اليه والمناخ على المجتمع بمكر تلخيصها بما يلي :

شئ المجتمعات بالكائنات الحية التي تنمو باطراد ، يفرض عليها تنوع البيئات والأوضاع السوح في التركيب والانعغال . هكذا مهتد المسبل أمام النظريات الحديثة التي نقول بأن لبنة انعصرية والولادية تعرض على الأفراد عقبات وعادات وتقاليد خاصة تدو كأيها انعكاسات البيئة على الصمائر الفردية⁽⁴⁾ .

لضالماً أعلن الحاحظ أن هوارق المدسة والإمكانات عند مختلف الشعوب إنما تحصع مواهب عريرية عند كل حس كما تحصع إلى تركيبه وإلى الحو الذي

(1) على هامش الكامل للمبرد ، ج 1 ، صفحة 84

(2) الحيوان ، ج 6 ، صفحة 10

(3) الحيوان ، ج 2 ، صفحة 88

(4) الحيوان ، ج 5 ، صفحة 326 إلى 370

يعيش فيه^(١).

ومن هنا استتبع أن كل شعب مدعو ، بحكم أوضاعه الوراثة والطبيعية ، إلى أن يشعل موقداً لا بد أن يصل إليه . وهذه الحتمية تذكر بطريقتي الحس والانداء التي شاعت في القرون الماضية ثم أحدثت مطلقيتها بالصاويل اليوم^(٢) . إلا إن حتمية الجاحظ سترتها عناية إلهية تحرص دواماً على الاستجمام التام في الضام الكوني .

(١) لقد أثار قبل ابن خلدون بقرون إلى أثر البيئة الطبيعية في الشعوب

(٢) قال به كذلك معاصره ابن العديم الهمداني .

خاتمة

إذا كان المحاط في حملاته على نقائص معصريه أو في وصفه أوضاع حياتهم لم يستهدف إنشاء نظام جماعي جديد، فإنه قد أشار، من قبيل ردة فعل، إلى أمور جوهرية لإصلاح الإنسان والمجتمع لقد حرّاه حملة أفكار هي في أساس المفاهيم القنوية والاجتماعية الحديثة كشرعية السطة، وحرية الإنسان الطبيعية، والتأثير البيئي، وسلطة الرئيس، وحقوق المرأة والتصامم الشرعي

ولئن لم يكن له مذهب اجتماعي مركز، أي منظم وموحد بشكر يحصل إلى التسليم بمعطيات تقرر السلوك الحياتي، فإنه عرّض حصينة اختبار طويل في خدمة لاستقرار الشخصي فهو إذ وصف مجتمع عصره كما هو، ساحراً من حله ونقصه أوحى صمياً كيف أراد أن يكون وهكذا يكون دشن في الطبق الاجتماعي ركائز الأسلوب العملي، أي للملاحظة والمقارنة فالقد.

لقد رأى المحاط وأرى كمن شخص من أشخاصه في بيئته الخاصة وثوبه الخاص وحركته الخاصة، فلم يعط عنهم رسماً تقريباً باصلاً، بل صورهم تصويراً واقعياً مدوناً فقد سمع وأسمع كلاً منهم يتحدث ببهجته المميزة وإنشائه بالوقوف، وقد الفارئ لا يفرغ من دراسة آثاره إلا وعي دهبه ما يؤهم أنه عايش حقاً صاحبها وأبطاله على اختلاف أوساطهم

إن انمادح البشرية العامة مستمر هي هي في الجوهر حتى لو تبدلت الأشكال بدلاً ثورياً. ولقد هد المحاط، من خلال لمظهر العابر، إلى أعماق النفس البشرية حين حصائصها الملاممة في كل عصر ومصر. فالحلاء والاعتد والخلعاب والسحفاء والمستثمرون والبصوص والمشعورون وغيرهم ممن وصفهم أبو عثمان بحالهم أحياء في ما بين وفي حيز الحاضر ولكن في ري قديم

المراجع

لن نذكر في هذا الشب إلا أهم مرجع لعربية دعم قيمة المسرح الأحيية ولا سيما الفرنسية و الأماية و الأيكبرية سي استعنا بها وذلك رعة في عدم التطويل

- الأيشيهي ، المطرف في كل من مستطرف ، (القاهرة)

- ابن لاباري نرمة الألباء في طبقات الأدياء ، (القاهرة 1303 هـ)

- ابن حرم كتاب الفصل في المنس والحس ، 5 أجزاء ، (القاهرة 1373 هـ)

- ابن حورل كتب صورة الأرض

- ابن حدود المقدمة

- ابن حنك : وفات الأعباء وأباء الرمان .

- ابن رشيق ، العمدة ، (القاهرة 325 هـ)

- ابن نعري تاريخ مختصر الدول ، (بيروت 890)

- ابن قتيبة : أدب الكاتب ، (القاهرة) .

- ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، (القاهرة 1326 هـ)

- ابن المقطبي : تاريخ الحكماء ، (القاهرة 326 هـ)

- ابن كثير : البداية والنهاية ، 14 جزءاً (القاهرة 1348 هـ)

- ابن المرتضى ذكر المعترقة ، (حيدر آباد)

- ابن مطور لساد العرب ، (بولاق 1300-1307)

- ابن السديم نفهوس ، (القاهرة 984 هـ)

- أبو حيان التوحيدي الامتاع والمؤانسة .

- أبو حيان التوحيدي : تقریظ الحافظ

- أبو ريذه ، إبراهيم بن سيار النظام ، (القاهرة 1946) .

- أبو الفداء : مستطرف تاريخ البشر .
- الشعري مصالات الإسلاميين ، (استمبول 1929)
- الأصفهاني (أبو الفرج) : كتاب الاعايب ، (بولاق) .
- أمين (أحمد) . صحي الإسلام ، (القاهرة 1933)
- البستاني (بطرس) - كتاب دائرة المعارف ، (بيروت 1882) .
- البغدادي (عبد الوارث) - كتاب الفرق بين الفرق ، (القاهرة 910)
- البغدادي (الخطيب) - تاريخ بغداد ، (القاهرة 1931) .
- البلاذري - فرياح البلدان
- الثعالبي . يتيمة السهر ، 4 أجزاء (دمشق 1304هـ)
- حري (شفيق) : الخاظم معلم العقل والأدب . (القاهرة 932) .
- حجي خليفة كشف الطنون ، جزءان (بولاق)
- حسين (إبراهيم حسن) تاريخ الإسلام السياسي ، (القاهرة 948) .
- الرافعي عصر المأمون ، 3 أجزاء (القاهرة 1927)
- الرزكلي . الأعلام ، قاموس التراجم . 3 أجزاء (القاهرة 1928)
- أريب (حسن) - التشيع معاوية في عهد العباسيين ، (المشرق 928)
- زيدان (حرجي) - تاريخ آداب العربية ، 4 أجزاء (القاهرة 1924) .
- زيدان (حرجي) : التمدن الإسلامي ، (القاهرة 1913) .
- السمعاني . كتاب الأساب ، (1912)
- السدوسي (حسن) : أدب الجاحظ ، (القاهرة 1930) .
- السدوسي (حسن) - رسائل الجاحظ ، (القاهرة 1933)
- الشهرستاني - كتب الملل والنحل ، (ليرينج 1923) .
- الطبري - تاريخ ، 5 أجزاء (لايد 1879-1901) .
- العراقي - المعتمد من الصلال ، (القاهرة 1359هـ)
- الفاحوري (يوسف) - الجاحظ ، (بيروت 953) .
- كراوس والجاحري . مجموعة رسائل الجاحظ
- كرد علي (محمد) : رسائل البغاء ، (القاهرة 913) .
- كرد علي (محمد) : أمراء البيان ، جزءان (دمشق 1939)

- مبارك (محمد) : الجاحظ وهن القصة في البحلاء (دمشق 1940)
- مبارك (ركي) : الثر العربي في القرن الرابع الهجري
- الحرّ د . الكامن في الأدب ، (القاهرة 1324هـ)
- محيي الدين (عبد الرزاق) : أبو حيان التوحيد ، (القاهرة 1949)
- مردم (حليل) : أئمة الأدب الجاحظ ، (دمشق 1930) .
- المسعودي : مروج الذهب .
- المشرق (محنة تصدر في بيروت)
- نادر (أليز) . فلسفة المعتزلة
- الهمداني (بديع الزمان) : مقامات ، (بيروت 994)
- الهمداني (ابن الفقيه) : كتاب البلدان ، (لايد) .
- ياقوت : معجم البلدان ، 6 أجزاء (بيبريع 866-1870)
- ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، 7 أجزاء (سند)
- اليعقوبي . (كتاب البلدان) .

مهرست

5	توطئة
7	الجاحظ في حياته وبيته
7	في البصرة
9	في بغداد
11	عند أبي دؤاد
12	الشيخوخة
14	آثار الجاحظ
14	كتاب الحلاء
14	السبب والتبیین
16	رسالة التربع والتدوير
17	سائر الرسائل
18	أخلاق الجاحظ ونواياه
20	ما هو المجتمع الذي رصفه الجاحظ
20	نموذ الأعاجم
20	الحرية الفكرية
21	الثقافة
22	المعرفة
22	أهل الكتاب
23	البيئة الاجتماعية
25	المجتمع العباسي كما رآه الجاحظ
26	الحفل الأخلاقي

26	المستثمرون
28	المتسولون
29	المخلاء
32	القيان
33	الغناء والخمر
34	الحفل الديني السياسي
34	الأفليات الدينية والذهرية
36	الثنائية
38	الذهرية
39	الفرق الإسلامية
39	الحشوية والناطقة
39	الرافضة
40	الأمويون
41	الشعوية
43	فئات المجمع
43	الخليفة والبلاط
44	المشعوذون
45	الأطباء
45	المنجمون
46	المفسرون
48	المعلمون
50	الكتاب
52	التجار
53	المترجمون
54	البحريون
56	المتصوفون والزهاد
56	المتكلمون
58	العامة الجاهلة

59	حول بعض وجوه المجموع
59	الخرافات والأساطير
60	الجن
62	سائر الأساطير والمعتقدات
65	الشعوب المختلفة
65	الأثر
66	الزواج
67	شعوب شتى
67	أثر البيئة
69	المرأة والحياة المنزلية
72	الحركة الأدبية
74	قيمة شهادة الجاحظ على مجتمع عصره
74	القيمة الأدبية
74	وصف الأشخاص
77	ضحك الجاحظ
78	القيمة التاريخية
79	الناقد
80	القيمة الذهبية
81	الإنسان كائن اجتماعي
81	العقل
82	الأخلاق
83	الطبيعية
84	المجتمع
85	الدين
86	نظرات لي علم الاجتماع
88	خاتمة
89	المراجع

أبو سلوم المعتزلي

